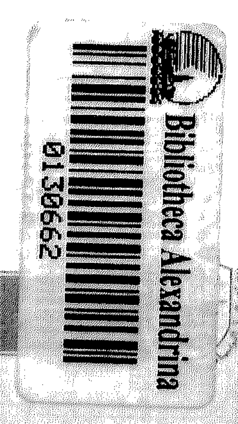
الدكتور عبدالله الصالح العثيمين



نشأة إمارة آل رشيد

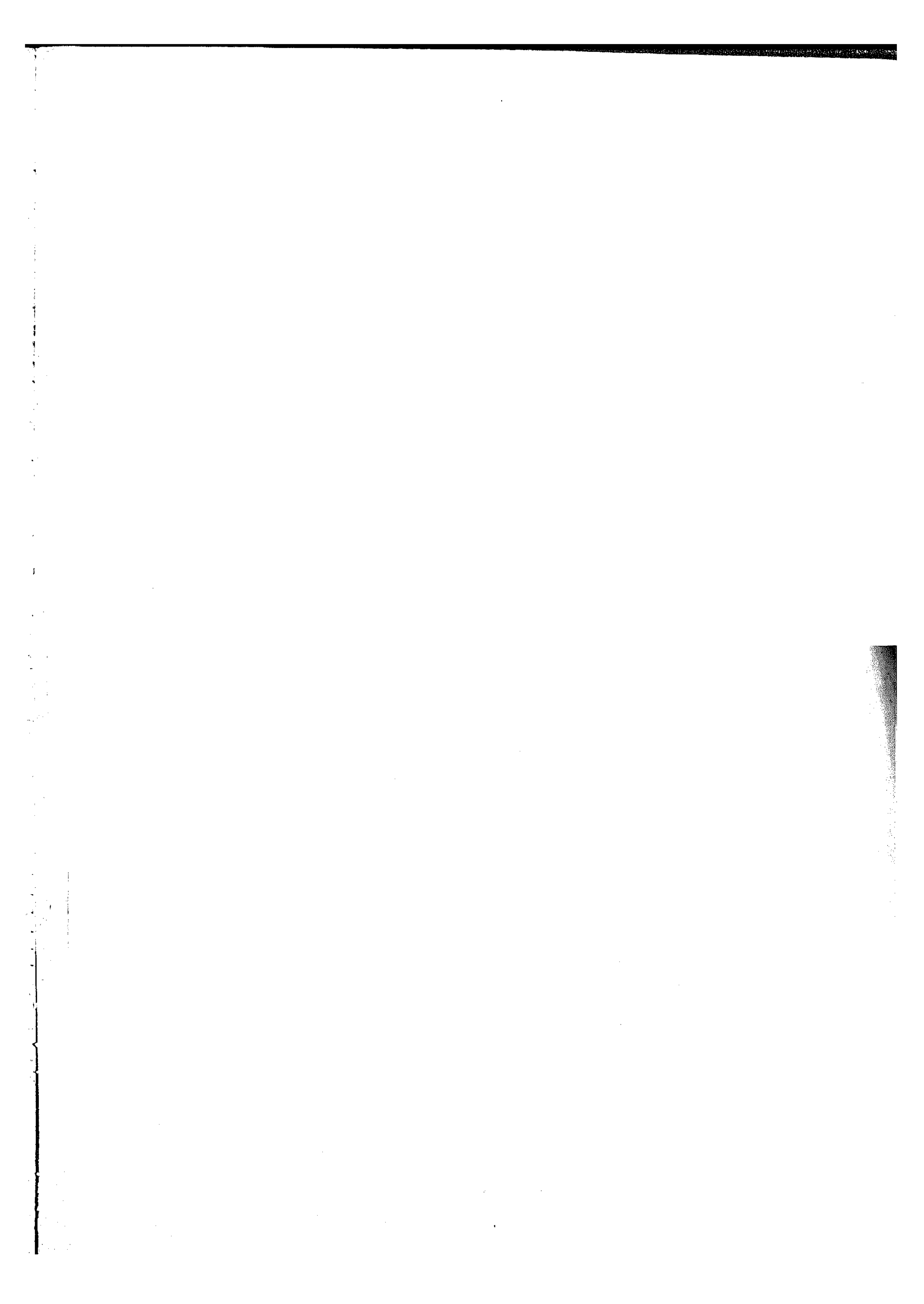


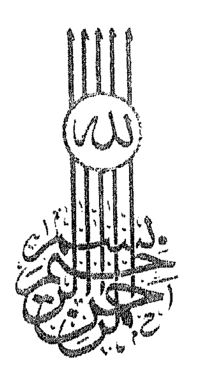
١٤٠١ هـ

الناشر : عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الرياض

الرياض

١٩٨١ م

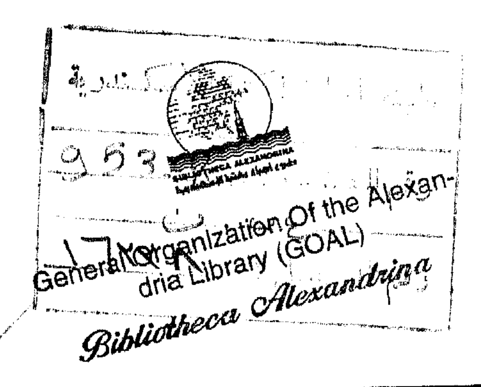




نشأة إمارة آل رشيد

الدكتور عبدالله الصالح العثيمين

قسم التاريخ ـــ جامعة الرياض



الناشر : عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الرياض

ص.ب : ٢٤٥٤ الرياض ـ المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ (١٩٨١)

مطابع الشرق الأوسط ت : ٤٠٢٧٦٣٣

شكر وثناء

الذين ساعدوني على إخراج هذا الكتاب الى حيِّز الوجود كثيرون . منهم من ساعدني بإمدادي بما لديه من معلومات أو بتسهيل مهمتي في الوصول إليها ، ومنهم من ساعدني بالمناقشة وتبادل وجهات النظر . فلكل من ساعدني بأية طريقة جزيل شكري ووافر ثنائي.

المؤلف

المحتويات

تقديم

لقيت بعض جوانب تاريخ الجزيرة العربية في العصور المتأخرة عناية لا بأس بها من الباحثين. ومن مظاهر هذه العناية دراسات جيّدة تغطّي جوانب معيَّنة من تاريخ المملكة العربية السعودية قبل اتخاذها هذا الاسم وبعده. لكن جوانب أخرى من ذلك التاريخ ما تزال في حاجة إلى الدراسة والبحث. ومن هذه الجوانب تاريخ نشأة إمارة آل رشيد.

ومن المعروف أن عمر الإمارة المذكورة كان حوالى تسعين عاما، ابتدأ بتعيين الإمام فيصل بن تركي لعبد الله بن علي بن رشيد أميرا على جبل شمّر في نهاية سنة ١٢٥٠ هـ، أو في بداية السنة التالية لها، وانتهى باستيلاء الملك عبد العزيز آل سعود على حائل سنة ١٣٤٠ هـ.

ومن المعروف ، أيضا ، أن تلك الإمارة بدأت تابعة للإمام فيصل بن تركي، ثم أحاطت بها، وبالبلاد بصفة عامة، ظروف مكنتها من أن تصبح علاقة ذلك الإمام بها مختلفة عن علاقته بالإمارات الأخرى التابعة له. وظلت تلك الإمارة تقوى شيئاً فشيئاً حتى بدأ التنافس بينها وبين من كانت تابعة لهم. وتطوَّر ذلك التنافس إلى نزاع بين الطرفين حول النفوذ في منطقة نجد كلها. وتمكن آل رشيد من التغلّب على آل سعود في نهاية العقد الأول من هذا القرن. وبذلك انتهت الدولة السعودية الثانية. لكن الملك عبد العزيز آل سعود نجح، فيما بعد، في إحراز نصر نهائي على آل رشيد ، واستعاد حكم آبائه وأجداده على البلاد ممن استولوا عليه فترة من الزمن.

والدراسات المهتمة بتاريخ المملكة العربية السعودية بوجه عام تتناول، عادة، تاريخ إمارة آل رشيد ، خاصة تلك الفترة الممتدة من بداية التنافس بينهم وبين آل سعود حتى نهاية إمارتهم. ولعلّ من أوفى الدراسات عن تاريخ إمارة آل رشيد، خلال الفترة المشار إليها، تلك الدراسة التي خصصها مايكل بارون لهذا الموضوع، ونال بها درجة الدكتوراه من جامعة ميتشجن الأمريكية في سنة ١٩٧٩.[١] . وقد غطّت هذه الدراسات العامة والخاصة الجزء الأكبر من تاريخ تلك الفترة بإيجابياته وسلبياته. ووجود هذه الدراسات عن ذلك التاريخ، إضافة إلى ما قد يوجد في تناوله من حرج يبدو من أهم أسبابه قربه من المعاصرة ، يدفع الباحث إلى دراسة ما هو أكثر غموضا وأقل حساسية من التاريخ المذكور.

وهكذا جاء اهتمام هذه الدراسة ، التي بين يدي القارىء الكريم، منصبا على نشأة إمارة آل رشيد. ذلك أن تلك النشأة لم تدرس دراسة تجيب عن كثير من التساؤلات المتعلّقة بها، ولأنها أبعد فترات تاريخ آل رشيد عن الوقت الحاضر زمنا وأقلُّها ، لذلك، حساسية.

وتاريخ نشأة تلك الإمارة مرتبط بحياة مؤسسها عبد الله بن علي بن رشيد بدرجة كبيرة. وتاريخ حياة ذلك الأمير قبل أن يصل إلى الإمارة ، والطريقة التي وصل بها إليها، وقضاؤه على منافسيه المحلّيين من أبرز الأمور التي ندرت عنها المعلومات أحيانا واختلفت حولها أقوال المصادر أحيانا أخرى. ولعلَّ مما يساعد على تكوين تصوُّر واضح لهذه القضايا بالذات إعطاء عرض تاريخي للأوضاع السائدة في المنطقة قبل تأسيس عبد الله بن علي بن رشيد إمارته فيها. وذلك لا يتأتّى إلا بتناول أسرة آل علي، التي حلّ مؤسس إمارة آل رشيد محلها في إمارة الجبل.

---

(١) رغم ما في بعض فصول هذه الدراسة من عرض جيد فإن من قام بها لم يستعمل فيها رافدين مهمّين من روافد مصادر تلك الفترة التاريخية، وهما الوثائق العثمانية والشعر العاميّ ، أو ما يسمى أحيانا بالشعر الشعبي أو النبطي. ومن المرجح أن الباحث لو استعمل هذين الرافدين لظهرت دراسته أكثر جودة.

ونشأة إمارة آل رشيد ليست محدودة بتسلُّم عبد الله بن رشيد إمارة جبل شمّر وقضائه على منافسيه من آل علي، ولكنها ممتدة إلى وفاة مؤسس تلك الإمارة. وهي فترة استمرت حوالى اثنتي عشرة سنة. وقد شهدت البلاد خلال تلك الفترة أحداثا تاريخية هامة كان من أبرزها التدخُّل المصري العسكري الذي أدَّى إلى نهاية فترة حكم الإمام فيصل بن تركي الأولى سنة ١٢٥٤ هـ، وعودة ذلك الإمام إلى الحكم بعد خمس سنوات من التاريخ المذكور. وكان لبعض هذه الأحداث تأثير على أوضاع الأمير عبد الله بن رشيد ، كما كان لذلك الأمير من المواقف ما أثَّر تأثيراً واضحاً في سير بعض تلك الأحداث. وإذا كانت الكتابة عن أحداث البلاد العامة في تلك الفترة ليست من أهداف هذه الدراسة فإن من صميم اختصاصها إبراز القضايا التي أثَّرت في مواقف ذلك الأمير والقضايا التي تأثرت بمواقفه على حد سواء.

وكان للأوضاع الداخلية في إمارة عبد الله بن رشيد دور لا يستهان به في انتهاجه السياسة التي انتهجها، كما كان لصفاته الشخصية أثر في توجيه تلك الأوضاع الداخلية. وكل من هذه وتلك لها بصماتها الخاصة في رسم سياسة إمارته الخارجية وعلاقتها بالحكومات المسيطرة على قاعدة نجد، الرياض، والمناطق المجاورة لجبل شمّر جنوبا أو شمالا. وعلى هذا الأساس جاءت هذه الدراسة محاولة أن تتناول كل ما له علاقة بنشأة إمارة آل رشيد من ظروف تاريخية وأوضاع داخلية وخارجية في ضوء ما توافر لدى كاتبها عنها من معلومات.

والمعلومات المتوافرة عمّا سبق ذكره مختلفة الروافد. لكن أهم هذه الروافد أربعة :

الأول : المؤلفات التاريخية المحلّية . وبعضها كتبها مؤرخون عاصروا الأحداث التي هي موضوع الدراسة هنا. وفي طليعة هؤلاء ابن بشر والفاخري. لكن رغم ما في تاريخي هذين المؤلفين من معلومات قيّمة ، بصفة عامة، فإن اهتمامهما كان منصبا على الحكومة المركزية في الرياض. ولذلك جاء تناولهما لأحداث جبل شمّر ثانويا مختصرا، واضحا أحيانا

ومتّسما بالغموض أحيانا أخرى. وبعض تلك المؤلفات كتبها أناس غير معاصرين للأحداث المشار إليها. وفي مقدمة هؤلاء ضاري الرشيد ومقبل الذكير. ومع ما في نبذة ضاري التاريخية من أخطاء واضحة في عدة مواضع فإن فيها معلومات جيّدة عن إمارة آل رشيد غير موجودة في غيرها من المصادر. والمعلومات الواردة في تاريخ مقبل الذكير عن نشأة إمارة آل رشيد بعضها مأخوذ من ابن بشر، وبعضها الآخر مستمد من مصادر غالبها، على الأرجح ، الروايات الشفهية.

والثاني : كتب الرحّالين الأوربيين. ويأتي في طليعة هؤلاء والين، الذي زار منطقة جبل شمّر في أواخر عهد مؤسس إمارة آل رشيد. والمعلومات الموجودة في كتابه عن نشأة الإمارة تفوق غيرها من حيث الجودة والإفاضة. وكتاب الرحالة هوبير، الذي زار حائل زمن إمارة محمد بن عبد الله بن رشيد يقلّ عن كتاب والين في بعض النواحي، كوصف الحالة الاجتماعية ، لكنه أكثر تفصيلا منه في بعض النواحي الأخرى، مثل وصف الصراع الذي دار بين آل رشيد وآل علي. ومؤلفات الرحالين الأوربيين الآخرين، مثل جوارماني وبلجريف ودوتي وموزل ، تأتي في مرتبة ثانية بعد كتابي والين وهوبير بالنسبة لنشأة إمارة آل رشيد.

وثالث الروافد المشار إليها الوثائق المختلفة ، محلّية وغير محلّية . والوثائق المحفوظة في عابدين في القاهرة، والمتعلقة بحملة إسماعيل أغا وخالد بن سعود وحملة خورشيد المدعِّمة لحملتهما، تحتوي على معلومات لا غنى عنها لمن يريد أن يتقصّى أخبار تلك الفترة. وما ورد عن جبل شمّر ، بالذات ، يزيل بعض الغموض الذي لا تستطيع إزالته المصادر الأخرى.

أما الرافد الرابع والأخير للمعلومات المتعلّقة بنشأة إمارة آل رشيد فهو الشعر المحلّي، أو ما يسمّى أحيانا بالشعر النبطي أو الشعبي. ومن المعروف أن كثيراً من هذا الشعر كان يتناول الأمور السياسية الجارية، آنذاك ، في المنطقة . ولعلّ مما يزيد من أهميته كمصدر لتاريخ الإمارة المذكورة، أن كلًا من عبد الله بن رشيد وأخيه عُبَيد كان شاعرا. وقد حفل شعرهما بذكر كثير

من المشاكل والأحداث التي مرّت بهما وبمنطقتهما.

والأمل أن يجد القارىء الكريم في بعض جوانب هذه الدراسة ما يشفع لكاتبها عن تقصيره في جوانبها الأخرى.

والله وليّ التوفيق ...،،

الرياض : جمادى الثانية ١٤٠٠ هـ

تمهيد

كان ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حوالى منتصف القرن الثاني عشر الهجري، بداية مرحلة متميزة في تاريخ منطقة نجد وأوضاعها المختلفة[1] . فقبل ظهور تلك الدعوة ونجاحها كانت هذه المنطقة مكوَّنة من إمارات مدن صغيرة الحجم كثيرة العدد، ومن قبائل رُحَّل مختلفة الأحجام والنفوذ . وكان الخلاف بين إمارة وإمارة ، والنزاع بين قبيلة وأخرى من الأمور المألوفة في حياة الفريقين الحضري والبدوي على حد سواء. وكان لعدم وجود سلطة مركزية في المنطقة المذكورة عدة قرون متتالية، وللظروف الاقتصادية الخاصة بها، أثر واضح في نفوس سكانها، حاضرة وبادية. فقد رسخت فيهم النزعة الاستقلالية المتمسكة بكيانات صغيرة، وتعمق لديهم الشعور السلبي تجاه الاندماج في كيان كبير موحَّد يستظلون بظله . ولعل مما يوضح ذلك أن المحاولات التي قام بها أنصار دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب لصهر هذه الإمارات وتلك القبائل في بوتقة دولة واحدة أخذت أكثر من أربعين سنة.

وكانت حياة السكان المستقرين في نجد تعتمد على الزراعة والتجارة بصفة رئيسية، وعلى حرف أخرى بصفة ثانوية. بينما كانت حياة القبائل الرحَّل تقوم على الثروة الحيوانية وإنتاجها بدرجة أولى، وعلى ما تغنمه من الحروب أو

(١) هناك كتابات كثيرة عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته. ومن هذه الكتابات كتاب لمؤلف هذه الدراسة بعنوان **الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حياته وفكره**، القاهرة، ١٣٩٩ هـ.

تفرضه على الآخرين من إتاوات (إخاوات) بدرجة ثانية. لكن الحالة الاقتصادية على العموم كانت بعيدة عن الازدهار أو الرخاء.

أما الحالة العلمية والدينية فكانت ضعيفة بوجه عام. لكن ضعفها كان مختلف الدرجة من إقليم إلى آخر، وكان أكثر وضوحاً لدى البادية منه لدى الحاضرة.(١) .

وكانت منطقة جبل شمّر ، المسمّاة قديما جبلي طيء، مشابهة في أوضاعها لكثير من مناطق نجد الأخرى . لكنها، مع ذلك ، كانت تمتاز عن غيرها ببعض الخصائص. فقد كان سكانها، مثل تلك المناطق، حاضرة وبادية، لكن باديتها كانت أكثر من حاضرتها. ومن المرجّح وجود علاقة بين هذا الأمر وبين ضعف الحياة العلمية في هذه المنطقة خلال الفترة المشار إليها. فالمصادر التي بين أيدينا لا تذكر أسماء علماء أو قضاة كانوا في منطقة جبل شمّر قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب . بينما تفيد تلك المصادر أنه كان يوجد في أكثر المناطق النجدية علماء تفقّهوا في الدين حتى أصبحوا مؤهلين للنظر في مشاكل الناس، وحلّها حسب المذهب الديني الذي تفقهوا فيه. وهذا مما يؤيد ما ذكره مؤلف **لمع الشهاب** من أن مشاكل سكان جبل شمّر في تلك الفترة كانت تحلّ حسب العرف، لا طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية (٢).

وكان سكان جبل شمّر من الحضر ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة، وبينهم أقلية من الموالي أو من أصول غير عربية. وكان لقبيلتي تميم وشمّر النصيب الأكبر من التمثيل بين أولئك السكان. ذلك أن عددا من بلدان الجبل كان

(١) توجد دراسة مفصّلة عن أوضاع نجد خلال المرحلة المذكورة لكاتب هذه السطور. وقد نشرت مسلسلة في مجلة **الدارة** بعنوان: «نجد منذ القرن العاشر الهجري حتى ظهور الشيخ محمد ابن عبد الوهاب». انظر **الدارة**، ذو الحجة ١٣٩٥ هـ: ٦٦ــ٧١، شوال، ١٣٩٧ هـ: ١٢ــ٢٧، ربيع الثاني، ١٣٩٨هـ : ٢٢ــ٢٩، شوال، ١٣٩٨ هـ : ٣٢ ــ ٤٥.

(٢) مؤلف مجهول، **لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب** تحقيق الدكتور أحمد مصطفى أبو حاكمة، بيروت، ١٩٦٧ م : ٣٣. وسيشار إليه، مستقبلا، **بلمع الشهاب** فقط.

يسكنها أناس يكادون يكونون جميعا من قبيلة تميم. وكان في مقدمة هذه البلدان قفار، التي كانت أكبر بلدة في المنطقة خلال الفترة التي تتناولها هذه الدراسة. وكان المنتمون إلى قبيلة شمّر من حاضرة المنطقة منتشرين في بلدان متعددة. وكانت بلدة حائل أكبر وأهم مركز من مراكزهم. وليس من المعروف ما إذا كان عدد المنتمين إلى قبيلة شمّر من حاضرة الجبل أكبر من عدد المنتمين إلى قبيلة تميم. لكن بادية قبيلة شمّر كانت، آنذاك ، هي المسيطرة على مراعي تلك المنطقة. ومن هنا فإن المنتمين إلى هذه القبيلة، حاضرة وبادية، كانوا ــ على الأرجح ــ أكبر مجموعة سكانية هناك. ومن ناحية أخرى، فإنه كان يوجد ارتباط نَسَبيّ بين بادية تلك المنطقة وبين كثير من سكانها المستقرين وزعامتهم. وهذا ما كان نادر الوجود في بقية المناطق النجدية. وقد ظهر أثر ذلك الارتباط النَسَبيّ واضحا في سير أوضاع إمارة آل رشيد مستقبلا.

وإذا كانت هناك أكثرية من سكان الجبل تنتمي إلى قبيلة شمّر فإن زعامة قاعدة تلك المنطقة ، حائل، كانت تنتمي إلى عشيرة عَبْدَة من هذه القبيلة[1] . وتاريخ العشيرة المذكورة لا يختلف كثيرا عن تواريخ العشائر والقبائل الأخرى في وسط جزيرة العرب، آنذاك، من حيث ندرة المعلومات وعدم تحديدها. ومن ذلك النادر غير المحدَّد ما يروى من أن عشيرة عبدة كانت تسكن إحدى جهات اليمن ، ثم هاجرت من هناك متجهة شمالا، حتى حلّت بجبل شمّر.

وتشير هذه الرواية الشعبية إلى أن تلك الهجرة حدثت منذ أكثر من أربعة قرون. لكنها لا تعطي تاريخا دقيقا لها، كما أنها لا تشير بصورة مقنعة إلى الأسباب التي جعلت هذه العشيرة تحل بمنطقة جبل شمّر بالذات. ومن المعروف أن أسباب الهجرات القبلية تعود، في الغالب ، إلى حدوث قحط

---

(١) عن موقع حائل وما ورد فيه من أشعار قديمة وأقوال للجغرافيين والرحّالين انظر **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية : شمال المملكة**، للشيخ حمد الجاسر، دار اليمامة، ١٣٩٧ هـ : ٣٧٩/١ ــ ٣٩٠. وسيشار إليه، مستقبلا، **بالمعجم الجغرافي** فقط.

شديد ينتج عنه انهيار اقتصادي للقبيلة التي حدث في جهتها، أو حدوث ضغط عسكري من إحدى القبائل المجاورة أو الإمارات التي تسيطر على منطقتها. أما اختيار عشيرة عبدة المهاجرة لمنطقة جبل شمّر فإنه من غير المرجح أن يكون السبب الوحيد ، أو السبب الأقوى ، فيه ما يوجد من تشابه جغرافي بين موطنها القديم وبين مكان استيطانها الجديد. بل ربما كان لصلة النسب بين هذه العشيرة وبين بعض سكان الجبل المذكور أثر أقوى من العامل الجغرافي في ذلك الاختيار. وربما كانت هنالك انقسامات بين أبناء عمومتها المحلّيين، أو بينهم وبين قبيلة أخرى، جعلت أحد الفريقين المتخاصمين يغريها بالقدوم إلى المنطقة أملاً في وقوفها معه ضد خصومه. ومهما كان الأمر ، فإن عشيرة عبدة ما لبثت أن انتزعت سيادة المنطقة من زعمائها الأولين، وأجبرت بعضهم على مغادرتها . وكان أحد أولئك الزعماء الذين اضطروا إلى المغادرة يقال له بهيج. وإلى ذلك يشير شاعر من شعراء شمّر فيما بعد بقوله :

قبلك بهيج حدّروه السناعيس
من عِقْده الِّلي ما يحدّر قناها[1]

(١) عباس العزّاوي، **عشائر العراق**، بغداد، ١٣٦٥ هـ : ١٢٩/١. ويذكر هذا المؤلف أن بهيجا كان زعيما من قبيلة زبيد. حدّروه : أبعدوه. والسناعيس نخوة تطلق على شمّر أو على كثير من عشائرها. اللّي ما يحدّر قناها : التي يصعب إنزال قنيان تمر نخيلها من فروعها لكبرها. وعقدة في أجأ، ويوجد فيها كثير من نخيل أهل جبل شمّر. انظر عنها **المعجم الجغرافي**:٣/٩٢٤ ـــ ٩٢٧.

الفصل الأول

إمارة آل علي

ظلت مقاليد السيادة في منطقة الجبل في أيدي زعماء عشيرة عبدة زمنا غير قصير. وكانت إمارة حاضرتها، حائل ، خلال القرن الثاني عشر الهجري لآل علي المنتمين إلى آل جعفر، أحد بطون تلك العشيرة. والمعلومات عن هذه الأسرة أثناء ذلك القرن نادرة جدا. بل إنها تكاد تنحصر في ذكر أسماء بعض الأفراد الذين تولّوا الإمارة فيها. ومن هؤلاء محمد بن عيسى بن علي ، الذي كان مشهورا بالكرم(١) . وفي نهاية القرن المذكور سابقا كان أمير جبل شمّر أحد أحفاده وهو محمد بن عبد المحسن بن فايز بن محمد.

وكانت مساكن آل علي في أسفل قاعدة الجبل ، أو ما يعرف بالسويفلة. ثم بنى زعماؤها لهم قصراً في مكان يقال له الوشيقي على بعد ثلاثة كيلومترات من مساكنهم الأولى. وبعد ذلك أسس الأمير محمد بن عبد المحسن قصر برزان الشهير، الذي أصبح فيما بعد، قصر حكم آل رشيد. (٢) .

وكانت إمارة جبل شمّر من الإمارات النجدية التي تأخر انضمامها ، أو ضمّها، إلى دولة الدرعية التي تبنّت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. ومن الواضح أن أكبر الأسباب في ذلك كان عائدا إلى بعد منطقة الجبل نسبيا عن قاعدة تلك الدولة. ونتيجة للانتصارات التي أحرزها قادة الدرعية

(١) كان يقال لمحمد بن عيسى، أو محمد الأول، أخو خنساء أو السمن العرابي. ويقال إنه لقب باللقب الأخير لأنه أتاه ضيوف فذبح لهم ما تيسّر له من الغنم . لكنه ــ لكرمه ــ رأى أن ما ذبح قليل. فأمر بصب ما لديه من سمن على الطعام علّه يساعد في إشباعهم.

(٢) ويقال إن القصر سمي برزان لبروزه عن مسكنهم الأول.

في مناطق نجدية أخرى ـــ خاصة في منطقة القصيم الواقعة جنوب الجبل المذكور ـــ أصبح متوقعا أن تتجه أنظار أولئك القادة إلى الجهة الشمالية من نجد لضم حائل وما جاورها إلى دائرة نفوذهم.

ولعلّ أول احتكاك بين دولة الدرعية وبين قبيلة شمّر كان اشتراك فئات من هذه القبيلة مع حاكم الأحساء، سعدون بن عُرَيعر، في حصاره لبلدة بريدة سنة ١١٩٦ هـ (١). وكان أمير هذه البلدة من قِبَل الدرعية، آنذاك، حجيلان بن حمد آل أبي عليّان(٢). وقد دخلت منطقة جبل شمّر ضمن دولة الدرعية على يدي ذلك الأمير.

وربما كان لموقف تلك الفئات الشمّرية في حادثة حصار سعدون بن عريعر لبلدة بريدة أثر في تحمُّس الأمير حجيلان بن حمد لغزو منطقة الجبل، التي كانت قبيلة شمّر تسيطر عليها. لكن أقوى الأسباب، فيما يظهر، كان نابعا من تحمسه للدولة التي كان تابعا لها، ورغبة قادة هذه الدولة في توسيع

(١) عثمان بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، الطبعة الثانية من قبل وزارة المعارف السعودية سنة ١٣٩١ هـ: ٩٤/١. وسيكتفى، عند الإشارة إلى هذا المصدر مستقبلا، بذكر **عنوان**. وسعدون بن عريعر أحد زعماء قبيلة بني خالد وحاكم الأحساء. وقد أتت أسرته، آل حميد، إلى حكم تلك المنطقة سنة ١٠٨٠ هـ حين تمكّن برّاك بن غُرير ومن معه من طرد جنود العثمانيين منها. وأصبح لهذه الأسرة نفوذ في بعض مناطق نجد. وحين قامت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقف زعماء هذه الأسرة ضدها سياسيا وعسكريا. وكان أول هجوم عسكري يوجهونه إليها سنة ١١٧٢ هـ. وفي آخر القرن الثاني عشر الهجري تجدّد الخلاف بين زعماء بني خالد في وقت كان فيه قادة الدرعية قد تمكنوا من إدخال أكثر مناطق نجد تحت نفوذهم. وذلك ما رجّح كفة قادة الدرعية على كفة زعماء بني خالد. وقد آل الأمر بسعدون، أمام ثورة داخلية عليه، إلى الالتجاء إلى الدرعية سنة ١٢٠٠ هـ. ثم أدخل آل سعود منطقة الأحساء تحت نفوذهم بعد ذلك بسنوات قليلة.

(٢) تنتمي أسرة حجيلان بن حمد إلى العناقر من بين تميم. وقد أصبح حجيلان أميرا لبريدة بعد مقتل أميرها عبدالله بن حسن في غزوته مع الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود لقبيلة آل مرّة على أرض الخرج سنة ١١٩٠هـ. (**عنوان** : ٨٣/١) وكان حجيلان من المتحمسّين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودولة الدرعية التي نمت باحتضانها لها. وقد قام بكثير من الغزوات لمصلحتها، وأصبح أقوى شخصية في منطقة القصيم كلها. وظل أميراً قويا في تلك الناحية حتى انهارت دولة الدرعية على يدي إبراهيم باشا سنة ١٢٣٣ هـ. وقد نقله إبراهيم معه إلى المدينة المنوّرة حيث توفي هناك بعد وصوله إليها بقليل.

رقعة مساحتها ونفوذها. ويضاف إلى ذلك قرب إمارة حجيلان من منطقة جبل شمّر.

وقد بدأ الأمير حجيلان بن حمد نشاطه نحو جهة جبل شمّر بعد أربع سنوات فقط من حادثة الحصار السالفة الذكر. ذلك أنه غزاها بأتباعه من أهل القصيم، ومعه قسم من قبيلة عنزة، سنة ١٢٠٠ هـ. وكان من الأمور التي قام بها أن رصد في بقعاء لقافلة تجارية كبيرة كانت قادمة من البصرة وسوق الشيوخ. وقد تمكن من أخذ ما كان معها من بضائع لأهل الجبل وغيرهم، كما قتل عددا من رجالها (١). وكان الانهاك الاقتصادي للخصوم، كقطع طرق قوافلهم التجارية وتخريب إنتاجهم الزراعي، من الأساليب الناجحة التي اتّبعها قادة الدرعية لإرغام معارضيهم على الاستسلام لهم (٢) . ولذلك فإن غزو حجيلان بن حمد ومن معه لمنطقة شمّر في السنة التالية، قدّ أدّى ثماره. وقد وصف المؤرخ حسين بن غنّام، المعاصر لتلك الحادثة، ذلك الغزو ونتائجه بقوله:

«وفيها ــ سنة ١٢٠١ هـ ــ غزا حجيلان بأهل القصيم ومن حوله من العربان وقصد أهل الجبل فاستقر بذلك المكان، وأقام فيه مدة أيام وليال. وغالب أهل تلك البلاد إلى الدخول فى الإسلام في إقبال. فقدم عليه في ذلك الزمن كثير من بلدان ذلك الوطن، وعاهدوا على الإسلام، ورغبوا في الدخول والاستسلام. ومن أعرض عن ذلك وصدّ تصدّى حجيلان لحربه وقصد، وتأهب له واستعد، وأقبل عليه بالحروب والحرابة، حتى يدين للإسلام ويفتح بابه . وأخذ أموال من امتنع في ذلك الوقت والحال، حتى طاعوا للتوحيد بالإجمال. فلم يشدّ حجيلان للسير عنهم الرحال، حتى تلقى جميعهم الإسلام بأحسن استقبال».(٣)

(١) **عنوان** : ٩٨/١.

(٢) المصدر السابق : ٣٦/١، ٤٨، ٥٤.

(٣) حسين بن غنّام ، **روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الاسلام**، القاهرة، ١٣٦٨ هـ : ١٣٠/٢. وسيشار إلى هذا المصدر، مستقبلا، بكلمة **روضة**.

وإذا كان إدراك زعامة الجبل للظروف الجديدة واضحا في دخولها تحت نفوذ الدرعية فإنه من المرجح أن تلك الزعامة قد تكوّن لديها اقتناع قويّ بصحة موقف المؤيدين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ولذلك فإنها ، فيما يظهر، لم تبد مقاومة حقيقية لحجيلان بن حمد وأتباعه . يوضّح ذلك أن كلا من ابن غنام وابن بشر لم ينص على قتل أفراد من الجيش الغازي أو الجهة المغزوّة.[1] . ومن المحتمل جداً أن أسرة آل علي بزعامة الأمير محمد بن فايز قد رحبت، إلى حد ما، بالانضمام إلى الدرعية، وتعاونت مع حجيلان ابن حمد في مهمته. ويبدو أن عبيد بن علي بن رشيد كان يشير إلى ذلك في قصيدته عن معركة بقعاء سنة ١٢٥٧ هـ حين قال، معرّضا بأمير بريدة عبد العزيز بن محمد آل أبي عليّان :

يقول جدّه يوم صَوْلَةْ هَلْ الدين

قادوه علْيَه ذاهبين الحمايل[2]

ومما يدل على اقتناع أسرة آل علي بالدعوة وترحيبها بمن كانوا معها أنها ظلت مخلصة لها وفيّة لمن أيّدوها منذ تلك السنة، كما سيظهر في هذه الدراسة.

---

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها؛ **عنوان**: ١/٩٩ــ١٠٠. وقد ذكر مؤلف مجهول معاصر للحادثة المذكورة أن حجيلان بن حمد قتل رجلا ساحرا في الجبل، ونصب محمد بن علي شيخا في المنطقة. انظر **كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب**، المكتبة الوطنية بباريس، رقم ٦٠٦١: ٢٢. ولعلّ حجيلانَ أقرّ محمد بن علي في زعامة الجبل.

(٢) **لبذة تاريخية عن نجد**، أملاها الأمير ضاري بن فهيد الرشيد، وكتبها الاستاذ وديع البستاني، ونشرتها دار اليمامة سنة ١٣٨٦ هـ: ٨٣. وسيشار إليها، مستقبلا، بكلمة **نبذة**.

هذا وقد ذكر في هامش الصفحة السالفة الذكر أن في البيت إشارة إلى ما عمله حجيلان في عنيزة حين استيلاء آل سعود عليها. لكنه من المرجّح أن الضمير في كلمة «علْيَه» يعود إلى كلمة «ديارنا» في بيت ورد قبل هذا البيت وهو:

جونا يبون ديارنا والبساتين يبغون منزلهم قفار وحايل

ويبدو أن الشاعر يقصد بقوله «ذاهبين الحمايل» آل علي الذين كانوا خصومه. وكأنه يريد أن يوضّح أنهم قادوا حجيلان على ديار الجبل أو مهّدوا السبيل له للاستيلاء عليها. وذلك ما ظن عبد العزيز بن محمد أنه سيتكرّر.

على أن دخول بلدان الجبل ضمن دولة الدرعية في السنة المشار إليها لم يكن يعني، في حقيقة الأمر، خضوع بادية قبيلة شمّر، القاطنة هناك، لتلك الدولة. كما أنه لم يكن يعني ، بأية حال، أي امتداد لنفوذ الدولة المذكورة على عشائر قبيلة شمّر التي كانت خارج تلك المنطقة ، مثل العشائر الموجودة آنذاك في الأراضي العراقية. ومما يؤكد ذلك أن كثيرا من عشائر شمّر القاطنة في منطقة الجبل انضمت إلى شريف مكة في هجومه على الاراضي التابعة لدولة الدرعية سنة ١٢٠٥ هـ[(١)] . وقد جاء رد فعل هذه الدولة على موقف تلك العشائر سريعا، كما كان منتظرا. فبعد رجوع شريف مكة إلى بلاده اجتمعت عشائر مطير وشمّر، التي اشتركت مع الشريف في هجومه، حول العدوة القريبة من حائل. فقام الأمير سعود بن عبد العزيز بمهاجمتها وانتصر عليها. ثم جمع المنهزمون شتاتهم واستنجدوا بمن حولهم من قبائلهم، وأقبلوا لمحاربة سعود والثأر منه. وكان قائدهم الزعيم الشمّري مسلط ابن مطلق الجرباء الذي كان متحمساً للمعركة لدرجة أنه كان مصمِّما على مداهمة الصيوان الخاص بالأمير سعود نفسه. لكنه قتل دون الوصول إلى هدفه[(٢)] . وكان أن انهزم من كانوا معه، وغنم الأمير سعود وأتباعه منهم غنائم

---

(١) **عنوان** :١/١٠٨ ــ ١٠٩. وانظر تفاصيل الهجوم ونتيجته، أيضا، في **روضة**: ٢/١٤٧ ــ ١٥٠.

(٢) كان مسلط بن مطلق الجرباء مشهورا بالكرم والشجاعة. يقال إن أباه كان يرى التريّث ومهادنة آل سعود لكنه كان يعارضه في ذلك. وينسب لمسلط قصيدة حول هذا الموضوع منها:

نطيّتْ روس مشمخراتْ العراقيب ... في راس حيدٍ نايف مقلحزّي
وجرّيت صوت مثلما جرّه الذيب ... أوجس ضلوعي من ضميري تنزّي
الحّر وان كثرت عليه المطاليب ... ملزوم عن دار المذلّة يفزي
لا صار ماناتي سواة الجلاليب ... وقــلايع بايماننـــا له نخزّي

انظر عباس العزاوي، **عشائر العراق** : ١/١٤٢. وقارنه بكتاب منديل الفهيد، **من آدابنا الشعبية في الجزيرة العربية**، بإشراف دار اليمامة، ١٣٩٨ هـ : ١/٢٤٧.

كثيرة قدّرها كل من ابن غنّام وابن بشر بأكثر من ستة الآف بعير ومائة ألف من الغنم(١). وبذلك خسرت قبيلة شمّر خسارة مادية كبيرة، كما خسرت خسارة معنوية فادحة بفقدها أحد أبطالها المشهورين.

وكان من نتائج المعركة السابقة أن هاجرت فئات كثيرة من قبيلة شمّر، بزعامة مطلق الجرباء، من نجد إلى العراق حيث استقرت، فيما بعد، في منطقة الجزيرة وأصبح لها نفوذ قوي هناك(٢). وكما كان متوقعا ظل أولئك المهاجرون في علاقة غير ودّية مع دولة آل سعود في نجد. ولعلّ من أوضح الدلائل على ذلك غزو الأمير سعود بن عبد العزيز لهم قرب السماوة سنة ١٢١٢ هـ، حيث قتل زعيمهم مطلق الجرباء، واشتراكهم في حملة الكيخيا عليّ الموجهة من العراق ضد الأراضي السعودية سنة ١٢١٣ هـ (٣).

وإذا كان كثير من قبيلة شمّر قد فضل البقاء خارج النفوذ السعودي فإن قسما من هذه القبيلة قد انضم إلى دولة الدرعية بطريقة من الطرق. ذلك أن ابن بشر، في أثناء حديثه عن مقتل الإمام عبد العزيز بن محمد سنة ١٢١٨ هـ، ذكر زكاة بادية قبيلة شمّر من بين الزكوات التي كانت ترد إلى الدرعية(٤). وكان من بين هذه العشائر الشمّرية آل أسلم بزعامة ابن

---

(١) **روضة** :٢/١٥٠ — ١٥٢، **عنوان** :١/١٠٩ — ١١٠.

(٢) لعل أحسن دراسة عن قبيلة شمّر في موطنها الجديد الأطروحة التي نال بها الدكتوراه جون ويلسون من جامعة إنديانا الأمريكية سنة ١٩٧٥م. وعنوانها:

The Political History of the Shammar Jarba Tribe of al-Jazirah: 1800-1958.

وسيشار إلى هذه الأطروحة، مستقبلا، **بالتاريخ السياسي**.

(٣) **عنوان** :١/١٥٠—١٥١ و١٥٧؛ **التاريخ السياسي**: ٣٢. وقارن ذلك بما ذكره الاستاذ عباس العزاوي في **عشائر العراق**: ١/١٣٩ و١٤٥ — ١٤٦.

ولقد ذكر أمين الريحاني أن الجرباء كان أمير جبل شمّر قبل انضمام الجبل إلى آل سعود. وبعد انضمامه أمّر سعود أحد آل علي. انظر كتابه **تاريخ نجد وملحقاته**، بيروت، ١٩٧٣م: ٢٨٥. ولعلّه أدق لو قيل إن الجرباء كان زعيم بادية جبل شمّر، لأن إمارة حاضرة الجبل، حائل، كانت لآل علي قبل انضمام المنطقة إلى آل سعود.

(٤) **عنوان** : ١/١٧٣.

طواله. وقد أصبح لهذه العشيرة من النفوذ في تلك الجهة ما عبّر عنه أحد الشعراء بقوله :

حامين من فَيْدٍ الى حدّ الاقورْ
ومحرّمين ضدهم لا يذوقه(١)

وكان من نتائج معركة العدوة المشار إليها سلفا، تمكن نفوذ آل سعود في منطقة الجبل حاضرة وبادية على حد سواء. وبهذا التمكّن أصبح بعض أولئك القوم ضمن جيوشهم المقاتلة. وطبقا لما ذكره أحد المعاصرين لتلك الفترة قام أمير الجبل محمد بن علي سنة ١٢٠٧ هـ بغزو قبيلة الشرارات في منطقة الجوف. وكان معه أربعمائة من الإبل وخمسون من الخيل . لكن نتيجة غزوه كانت فاشلة(٢) . وبعد عام من ذلك التاريخ اشترك أهل جبل شمّر، بقيادة أميرهم محمد بن علي، مع القوات السعودية التي هاجمت الجوف. وقد نجحت تلك القوات في إدخال المنطقة المذكورة تحت الحكم السعودي(٣) . ومنذ دخولها تحت هذا الحكم ربطت إداريا بأمير حائل(٤).

وفي سنة ١٢١١ هـ اشترك أهل الجبل مع القوات السعودية التي أوكلت إليها مهمة صدّ حملة ثويني بن عبد الله، رئيس قبيلة المنتفق، الزاحفة من العراق إلى الأراضي السعودية(٥) .

(١) فهد المارك، من **شيم العرب**، بيروت، ١٣٨٦ هـ: ٢٤٢/١.

(٢) انظر كتاب **كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب**:٤٥ — ٤٦.

(٣) **روضة** : ١٦٨/٢، **عنوان** : ١٣٢/١ —١٣٣.

(٤) حمد الجاسر، **في شمال غرب الجزيرة**، دار اليمامة، ١٣٩٠ هـ: ١٢٣ وقارنه **بعنوان**: ٢٣٧/١ — ٢٣٨.

وقد ذكر مؤلف **كيف كان ظهور شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب** (٤٦) أن ابن درع أصبح زعيما للجوف. لكن قوله هذا لا يتنافى مع قول من ذكر أن المنطقة ربطت إداريا بحاكم جبل شمّر. فقد يكون المقصود أن ذلك الزعيم كان تابعا من الناحية الإدارية، لحاكم الجبل.

(٥) **عنوان**: ١٤١/١. وقد ذكر مؤلف **كيف كان ظهور شيخ الاسلام محمد بن عبدالوهاب** (٣١) أن محمد بن علي غزا ناحية العراق، واشتبك مع آل بعيج وقتل منهم خمسين رجلا.

واستمرت إمارة جبل شمّر مخلصة لدولة الدرعية ، مساهمة في غزواتها وحروبها ، منفذة لأوامر قادتها. ففي سنة ١٢٢١ هـ كان الأمير محمد بن عبد المحسن بن عليّ من بين الزعماء الذين أمرهم الإمام سعود بن عبد العزيز بالمرابطة حول المدينة المنورة لإجبار أمير حجاج الشام، عبد الله باشا العظم، على العودة إلى بلاده. وكان الإمام سعود يخشى أن يكون وصول عبد الله باشا إلى مكة ، مع ما يصاحب الحُجَّاج عادة من قوات، داعيا لثورة الشريف غالب ضد حكم آل سعود (١) . وفي سنة ١٢٢٥ هـ كان أهل الجبل مع زعيم الدولة السعودية في غزوه للبلاد الشامية(٢) . ولوقوع جبل شمّر في الطريق من المدينة المنوّرة وما حولها إلى العراق أوكل الإمام سعود إلى الأمير محمد بن عبد المحسن بن عليّ مهمة مراقبة فريق من الجيش المصري العثماني، بقيادة عثمان كاشف، في سيره إلى ذلك القطر سنة ١٢٢٨ هـ. وكان عثمان على رأس حامية من الجيش المذكور استسلمت للإمام سعود في الحناكية فأجبرها على الذهاب إلى العراق(٣) . كذلك اشترك أمير جبل شمّر مع القوات السعودية الأخرى في هجومها التأديبي الفاشل على عيَّاد الذويبي الحربي قرب الحناكية سنة ١٢٢٩ هـ (٤) . وكان أهل الجبل، أيضا ، مع الإمام عبد الله بن سعود في القصيم حين وصل إلى هذه المنطقة طوسون بن محمد علي سنة ١٢٣٠هـ، كما كانوا معه حين قام بتأديب بعض أهالي وبوادي تلك المنطقة بعد انسحاب طوسون منها (٥) .

وكانت منطقة جبل شمّر من المناطق السعودية الأولى التي تعرضت لهجمات إبراهيم باشا بن محمد علي حاكم مصر. من ذلك الحملة التي سارت

(١) عنوان : ١٨٨/١.

(٢) المصدر السابق : ١٩٨/١.

(٣) المصدر السابق : ٢١٥/١. وكان تسفيرهم إلى العراق عملا ذكيا من الإمام سعود لئلا يعودوا إلى الحجاز فيتقوّى بهم جيش محمد علي المحارب له هناك.

(٤) المصدر السابق : ٢٢٣/١.

(٥) المصدر السابق : ٢٤٩/١.

من الحناكية والتي كانت مكوّنة من ستمائة فارس تركي وألف فارس من البدو، إضافة إلى خمسة آلاف رجل من رجال القبائل التي انضمت إلى إبراهيم(١). وحين تمكن هذا القائد من القضاء على دولة آل سعود سنة ١٢٣٣ هـ قام هو ورجاله بإجراءات تعسفية ضد أهالي البلاد التي استولى عليها. وكان من تلك الإجراءات قتل بعض زعماء المناطق، خاصة من اشتهر منهم بحماسه لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وكان ممن ذهب ضحية ظلم ذلك القائد ورجاله أمير جبل شمّر، محمد بن عبد المحسن وأخوه علي(٢).

وفي سنة ١٢٣٧ هـ أتت إمدادات جديدة من مصر إلى نجد لدعم نفوذ محمد علي في هذه المنطقة. وقد ذهب القائد حسن أبو ظاهر إلى جبل

(١) انظر الوثائق ذات الأرقام ٥/١/١٣٣و ٥/١/٥٧ و٥/١/١٥٧ في دارة الملك عبد العزيز في الرياض. وقارنها بما كتبه سادلير

Sadleir, Diary of a Journey across Arabia (1819), New York, 1977:124.

(٢) **عنوان**: ٢٩١/١. والمعروف من نسب الأمير محمد أنه محمد بن عبدالمحسن بن فايز بن محمد بن عيسى بن علي بن علي الكبير، الذي يلتقي فيه نسب هذه الأسرة مع نسب آل رشيد. وكان محمد من أعظم معاصريه النجديين. وقد ظل زعيما للجبل أكثر من ثلاث وثلاثين سنة. وهو الذي وضع أساس قصر برزان الشهير. ويقال إنه أشار على أهل قفار إبّان غزو إبراهيم باشا لها أن يبنوا قصرا يكون جزء منه في مستوى أكثر انخفاضا من سطح الأرض القريبة منه لئلا تؤثر فيه المدافع. وفي سنة ١٢٣٤ هـ اغتاله الحبشي زعيم رجال إبراهيم باشا حيلة في مقصورة الداحس. ثم حزّ رأسه وبعثها إلى تركيا. ويشير إلى ذلك قول الشاعر:

يا حيف راس الشيخ تلعب به الروم   متقابـلين بينهم يجزرونـه

أما بقية جسده فدفنت في مقبرة الزبارة في حائل. وقد رأيت قبره هناك. وقد كتب على أحد شاهديه:

«محمد بن علي أمير المسلمين رحمه الله واسكانهو (اسكنه) — دار السلم — (السلام)»، وعبارة «أمير المسلمين» تفيد أنه كان مشهورا بالديانة، كما تفيد أنه كان عظيما. وهذا مما يؤيد ما ذكر من حماسه لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وما كان له من دور في الدولة المعتمدة على دعوته. وقد خلّف الأمير محمد بن عبدالمحسن أربع بنات، إحداها سلمى التي تزوجها عبدالله بن علي بن رشيد.

شمّر، وأجبر سكانه على دفع الزكاة إليه منذ عودة إبراهيم باشا من نجد إلى بلاده، كما قام بإجراءات مالية جائرة. ولم يكتف بذلك وإنما قتل ستين رجلا من سكان إحدى البلدان الواقعة شمال حائل[١].

وبعد انتصار الإمام تركي بن عبد الله آل سعود على بقايا القوات المرسلة من قِبَل حاكم مصر، وإجبارها على الرحيل من نجد، استتب له الأمر في سائر أنحاء هذه المنطقة. وكان جبل شمّر من الأماكن التي دخلت تحت نفوذه. ومن المرجّح أن إمارة الجبل المذكور قد انضمت إلى دولة الإمام تركي بن عبد الله سنة ١٢٤٢هـ. وذلك أحد قولي ابن بشر[٢]. ولعلّ مما يؤيد هذا الترجيح أنه توجد ورقة فيها حكم شرعي يتعلّق بقصر قرب حائل وقد كتبها الشيخ أحمد بن سليمان بن عبيد في السنة السالفة الذكر.[٣] . ومن المحتمل جدا أن ذلك الشيخ ـــ وأصله من جلاجل ـــ كان معينا من قبل حكومة الإمام تركي في الرياض. ذلك أنه كان من عادة الحكومة السعودية أن ترسل قضاة إلى منطقة الجبل بصفة خاصة.

والواضح من المصادر المحلّية أن إمارة جبل شمّر قد انضمت إلى دولة الإمام تركي بن عبد الله ،بمحض اختيارها. وليس هناك ما يؤيد ما ذكرته بعض المصادر من أن دخولها تحت نفوذ تلك الدولة كان قد تمَّ بطريقة الإجبار والقوة[٤].

على أن هناك مشكلة تتعلّق بالزعيم الذي أصبح أميراً لحائل في الفترة التي تلت قتل الأمير محمد بن عبد المحسن. ذلك أن عبارة وردت في تاريخ ابن بشر تثير تساؤل الباحث. فقد قال هذا المؤرخ: إنه في سنة ١٢٤٣ هـ أو التي قبلها «وفد عيسى بن علي، رئيس جبل شمّر، على الإمام تركي

(١) **عنوان**: ٣٠٧/١.

(٢) المصدر السابق: ٤١/٢.

(٣) علي الهندي، **زهر الخمائل في تراجم علماء حائل**، جدة، ١٣٨٠هـ:٨.

(٤) ممن ذكر ذلك موزل في كتابه: **Northern Negd, New York, 1928:237.**

وقد تأثّر به، فيما يبدو، فؤاد حمزة في كتابه **قلب جزيرة العرب**، القاهرة، ١٣٥٢ هـ: ٣٤١ـــ٣٤٢.

ومعه رؤساء قومه، فبايعوا على دين الله ورسوله والسمع والطاعة (١)..»
وهذه العبارة صريحة في أن عيسى بن علي كان ، آنذاك ، رئيس جبل شمّر .
لكن الدارس لابن بشر يلاحظ عدم دقته في بعض الأمور من حيث التعبير ،
ويرى أنه يستعمل أحيانا عبارات تحدث الوهم والالتباس لدى القارىء.
فكثيرا ما وصف أحد الأشخاص بأنه أمير بلدة من البلدان، بينما لم يكن
ذلك الشخص أميرا للبلدة التي أشار إليها في أثناء الفترة التي يتحدث عنها،
وإنما كان أميراً لها في الماضي أو سيصبح أميرا لها في المستقبل.(٢)

وعلى هذا الأساس فإن عبارة ابن بشر المذكورة كان المقصود بها، فيما
يظهر، الإخبار بوفود عيسى بن علي ـــ الذي أصبح بعد فترة أميرا على
الجبل ـــ مع زعماء قومه إلى الرياض مرسلين من قِبَل أمير المنطقة الفعلي،
آنذاك ، صالح بن عبد المحسن بن علي . وذلك لمبايعة الإمام تركي بن
عبد الله بالحكم.

ولعلّ مما يؤيد التفسير السابق أن ابن بشر نفسه حين تكلم عن اغتيال
الإمام تركي بن عبد الله ذكر أسماء أمرائه في المناطق المختلفة، وقال: إن أميره
على الجبل كان صالح بن عبد المحسن بن علي. ولم يشر إلى أن عيسى كان
أميرا فعزله الإمام وولى صالحا بدلا منه. ولو كان هذا هو الذي حدث

---

(١) **عنوان** : ٤١/٢.

(٢) من ذلك ـــ مثلا ـــ أنه أثناء حديثه عن مقتل الإمام تركي بن عبدالله، قال: «وكان مع فيصل، حين سمع خبر مقتل أبيه، رؤساء المسلمين، ومنهم رئيس الجبل عبدالله بن علي بن رشيد». (**عنوان**: ٦٥/٢) ومعروف أن عبدالله لم يكن في تلك الفترة رئيسا لجبل شمّر. وحين كان يتكلم عن حوادث سنة ١٢٥٣ هـ قال: إنه أقبل عبد الله بن علي بن رشيد رئيس الجبل ومعه أعوانه وعشيرته لمحاربة عيسى بن علي (**عنوان**:٩٩/٢). وكان حاكم الجبل آنذاك عيسى لا عبدالله. وعند حديثه عن حوادث سنة ١٢٥٥ هـ قال : إن خورشيد باشا أذن لأحمد السديري، والي الأحساء، أن يزور أهله وأولاده، وأرسل مكانه عيسى بن علي رئيس الجبل. (**عنوان**:١١١/٢) ومن المعروف أن أمير الجبل في تلك السنة كان عبدالله بن رشيد. ويقول أيضا: إنه في سنة ١٢٦٢ هـ «وفد متعب بن عبدالله بن رشيد، أمير جبل شمّر على فيصل ومعه بضع عشر فرسا هدية وحرائر من النجائب.» (**عنوان** ١٥٣/٢) ومعروف أنه في تلك السنة توفي عبدالله بن رشيد وتولّى ابنه طلال الإمارة بعده. فالأمير سنة ١٢٦٣ هـ لم يكن متعبا على أية حال.

لكان من المرجّح أن يشير إليه هذا المؤرخ(١) . وعند تولية الإمام فيصل بن تركي إمارة الجبل لعبد الله بن رشيد كانت الإمارة هناك في يد صالح بن عبد المحسن باتفاق المصادر التاريخية(٢) .

وعلى أية حال ، فإن كون صالح بن عبد المحسن رئيس جبل شمّر، آنذاك، لا يمنع احتمال وجود نفوذ قويّ لعيسى بن علي في شؤون إمارة تلك المنطقة. ومادونته المصادر منمواقف للأميرصالح تبين أنه لم يكن زعيمايتعذّر أن يوجد في ظل زعامته ذلك الاحتمال(٣) . وكثيرا ما حظيت شخصيات معيّنة بنفوذ لا يقلّ عن نفوذ زعامتها الرسمية إن لم يزد عليه(٤).

ومهما كان الأمر، فإن العلاقة بين إمارة الجبل وحكومة الإمام تركي بن عبد الله آل سعود كانت دائما وثيقة طيبة، مثلها في ذلك مثل العلاقة التي كانت موجودة بين إمارة تلك المنطقة وبين قادة الدرعية قبل قضاء إبراهيم باشا على دولتهم. وكان من أوضح الوجوه البارزة لتلك العلاقة الزكاة ، والغزو والقضاء.

وليس في المصادر المحلية المتوافرة ما ينصّ على أن منطقة جبل شمّر، بالذات ، كانت تدفع الزكاة إلى الحكومة المركزية في الرياض (٥) . لكن ابن

---

(١) **عنوان:** ٢/ ٧٧.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٤، **نبذة** : ٦٥، موزل، **شمال نجد:** ٢٣٨، وانظر، أيضا،

Wallin, «Narrative of a Journey from Cairo to Medina and Mecca, by Suez, Araba, Tawila, al-Jauf, Jubbe, Hail, and Nejd, in 1845 », **The Journal of the Royal Geographical Society**, **XXIV** (1854):180-1.

وسيشار إليه، مستقبلا، بوالين، **قصة**.

(٣) انظر صفحة ٤٩ من هذه الدراسة.

(٤) لعل من أقرب الأمثلة لذلك النفوذ الذي كان لزامل بن عبدالله السليم في عنيزة زمن إمارة عبدالله اليحيى السليم.

(٥) لكن في كلام الرحالة هوبير ما يشير إلى أن أمير الجبل، صالح بن عبدالمحسن، وفد إلى الإمام فيصل في بداية حكمه حاملا معه زكاة بلده. انظر

Huber, **Journal d'un voyage en Arabie (1883-1884)** Paris, 1888:142-4.

وسيشار إليه، مستقبلا، باسم مؤلفه، هوبير، فقط.

بشر ذكر أن الإمام تركي بن عبد الله جعل في بيت مال الجبل حمد الشويعر.[١] . ومن المحتمل ، أن قسما مما كان يرد إلى بيت المال المذكور كان يصرف في تلك المنطقة . على أنه من المرجّح أن زكاة بادية جبل شمّر كان يذهب قسم منها، على الأقل ، إلى خزينة الدولة في الرياض. ذلك أن ابن بشر ذكر أن الإمام بعث عمّاله سنة ١٢٤٧ هـ إلى العربان ليقبضوا الزكاة منهم، فأدّوها كلهم إلا العجمان [٢]. وتدخل في هذا التعميم القبائل الموجودة حول الجبل. ومن المعلوم أن الزكاة كانت أهم مصادر دخل الدولة آنذاك.

أما من حيث الغزو، فإن أهل جبل شمّر كانوا في كثير من الأوقات مع قوات الإمام تركي بن عبد الله في حروبها. من ذلك اشتراكهم مع القوات التي جهزت لصدّ حملة زعماء بني خالد على الأراضي السعودية سنة ١٢٤٥هـ، واشتراكهم في غزوتي الإمام تركي سنتي ١٢٤٦ و١٢٤٧ هـ [٣].

وأما ما يتعلق بالقضاء فإن حكومة الرياض كانت ترسل قضاة إلى جبل شمّر. لكن مما يلفت نظر الباحث أن القضاة الذين كانوا يرسلون إلى تلك المنطقة، زمن الإمام تركي، لم يكونوا قضاة دائمين وإنما كانوا يجلسون هناك أوقات المواسم، ثم يعودون منها بعد انقضاء تلك المواسم.[٤]. ومن الواضح أن مواسم جني الثمار يتم فيها تقسيم الإنتاج بين المالك والفلّاح، كما يتم فيها قدوم البادية إلى البلدان لشراء ما تحتاجه من ذلك الإنتاج. وكل من هذا وذاك يجلب معه مشاكله الاجتماعية الخاصة به. ومن هنا، كان لا بد من إرسال قضاة يساعدون في حل تلك المشاكل. ويبدو أنه كان يوجد في جبل شمّر قضاة مستقرون ينظرون في أكثر المشاكل الاجتماعية السهلة، بينما يؤجل النظر في بعض القضايا المعقّدة، نوعا ما، إلى قدوم أولئك القضاة المرسلين من حكومة الرياض لفترة معينة.

---

(١) **عنوان** : ٢/٤١.

(٢) المصدر السابق : ٢/٥٥.

(٣) المصدر السابق : ٢/٤٨، ٥٠، ٥٢، و٥٥.

(٤) المصدر السابق : ٢/٧٨.

الفصل الثاني

آل رشيد قبل إمارتهم

تتفق المصادر على أن أسرة آل رشيد تنتمي إلى نفس الفخذ الذي تنحدر منه أسرة آل علي، وهو آل جعفر أحد بطون عبدة من قبيلة شمّر[١]. والمعلومات التاريخية عن هذه الأسرة قبل بدء نشاط مؤسس الإمارة فيها، عبد الله بن علي بن رشيد ، نادرة جدا. وما ورد عن أبي هذا المؤسس قليل وغير متفق في ظاهره أحيانا. فالمصادر تكاد تتفق على أنه كان صاحب ديانة وورع[٢]. وبعضها يزيد على وصفه بهاتين الصفتين بوصفه بالكرم [٣]، والبعض الآخر بالشجاعة[٤]. ولعله من السهل التسليم بصحة اجتماع تلك الصفات في شخص علي بن رشيد. على أن من المصادر ما

---

(١) **نبذة**: ٦٠؛ موزل؛ **شمال نجد**:٢٣٧؛ العزّاوي، **عشائر العراق**:١/٢١٨؛ **الأزهار النادية من أشعار البادية**، نشر محمد سعيد كمال، القاهرة : ٣/١٣. وسيشار إليه، مستقبلا، بكلمة **الأزهار**.

ويقول سليمان الدخيل (**القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد**، ملحق **نبذة**: ١٤٧) إن مؤسس الإمارة هو عبدالله بن علي بن رشيد بن خليل بن عطيّة من آل جعفر، وإن خليلا كان أخاً لعلي، جد آل علي. لكن توجد ورقة عند السيد نايف آل علي في حائل ذكر فيها أن عبدالله هو ابن علي بن حمد بن رشيد بن خضير بن خليل بن جاسر بن علي بن عطيّة. وقد سمّى ابن بشر عم عبدالله جبر بن رشيد بن علي. انظر **عنوان**: ١/ ٣٠. وما ذكره ضاري الرشيد (**نبذة**: ٦٠) يتفق مع ما ذكر في الورقة المشار إليها سابقا من التقاء الأسرتين في علي. لكنه يضع حمداً أبا لرشيد لا ابناً له. ويبدو أنه أقرب إلى الصواب.

(٢) **نبذة** : ٦٤؛ فهد المارك، **من شيم الملك عبدالعزيز** : ١٣٩٨ هـ:٣/١٦٤.

(٣) **نبذة** : ٦٤.

(٤) فهد المارك ، **من شيم الملك عبدالعزيز** : ٣/١٦٤.

يذكر أن علياً كان جابيا للزكاة من بادية قبيلة شمّر زمن الإمام سعود بن عبد العزيز [١]. ومنها ما يشير إلى أنه كان صديقا للأمير محمد بن عبد المحسن بن علي[٢]. لكن منها، أيضا، ما يقول بأنه كان فلاّحا بسيطا في مزرعة الوسيطى، ولا صلة له بالأمراء[٣]

ومن المرجح أن علي بن رشيد كان يعمل في الفلاحة. لكن ذلك لا يتنافى مع ماذكر عنه من القيام بجباية الزكاة من البادية زمن الإمام سعود. ذلك أنه من الممكن العمل في الحقلين المذكورين معا. فوقت جباية الزكاة محدود بموسم معيّن. وكان باستطاعة علي أن يقوم بالزراعة في غير وقت تلك الجباية وأن يجعل فيها من يقوم بعمله وقت الموسم المشار إليه. ومن ناحية أخرى، فإن من ذكر عنه العمل في الفلاحة لم يشر إلى زمن بدء عمله فيها. ومن هنا، فإنه من المحتمل أن اشتغاله في هذا الميدان قد بدأ في فترة لاحقة لعمله في جباية الزكاة.

أما عن صلة علي بن رشيد بالأمير محمد بن عبد المحسن فإنها مما لا يتعارض مع عمله في الزراعة، ولا مع عمله في جباية الزكاة. بل إن عمله في الحقل الأخير من دواعي صلته بذلك الأمير. والواقع أنه كان هناك عاملان قويّان لقيام صداقة بين علي بن رشيد وبين الأمير محمد بن عبد المحسن بن علي. أحدهما وجود القرابة النَسَبية بينهما. والثاني عامل التديّن الذي اشتهر به كل منهما[٤].

وطبقا لما ذكره ضاري الرشيد في نبذته كان جبر بن رشيد، أخو علي، أحد كتَّاب الإمام سعود بن عبد العزيز، وكان ذلك الإمام يثق به ثقة قوية

---

(١) **نبذة** : ٦٣.

(٢) موزل، **شمال نجد**: ٢٣٧.

(٣) فهد المارك، «ملاحظات على كتاب موزل»، **العرب** ، محرم وصفر، ١٣٩٦ هـ: ٥٦٤ــ٥٦٥. وانظر، أيضا، كتابه **من شيم العرب**: ٤/١٣٠ــ١٣٢.

(٤) لعلّ لتلك الصلة أثراً في زواج عبدالله بن علي بن رشيد من ابنة الأمير محمد بن عبدالمحسن؛ علما أن هناك من المصادر ما يشير إلى سبب آخر لهذا الزواج، كما سيأتي .

جدا[١] . ويذكر ضاري، أيضا، أن جبرا توفي بعد وفاة الإمام سعود بأيام قلائل [٢]. ومن المعروف أن ذلك الإمام توفي سنة ١٢٢٩ هـ.[٣] . لكن ابن بشر يقول : إن جبر بن رشيد كان ممن التجأ إلى رأس الخيمة حين استسلام الإمام عبد الله بن سعود لإبراهيم باشا، كما يذكر أنه هرب مع من هرب من تلك المدينة عندما هاجمها البريطانيون سنة ١٢٣٥ هـ [٤] . ومن الواضح أن رواية ابن بشر ، المعاصر لتلك الأحداث، أرجح كثيرا من رواية ضاري الرشيد الذي كان متأخرا عنها، والذي كثيرا ما خلط بين الحوادث. وإيراد ابن بشر لاسم جبر بين أسماء من وصفهم بأنهم «من أعيان المسلمين» دليل واضح على المكانة التي كان يحتلها جبر في مجتمعه آنذاك.

وإذا كان ذلك أمر علي بن رشيد وتلك مكانة أخيه جبر فإن أسرة آل رشيد لم تكن،آنذاك، أسرة مغمورة من الناحية الاجتماعية. لكن شهرتها ، على أية حال ، ازدادت كثيرا بعد بدء نشاط مؤسس الإمارة فيها، عبد الله ابن علي بن رشيد، وأخيه عبيد.

والدارس لحياة كل من عبد الله وعبيد يرى أنهما كانا طموحين نشيطين منذ فترة شبابهما المبكّر. لكن المصادر غير متفقة في تاريخ بدء ذلك النشاط، وتحديد أوجهه، وما أدّى إليه من نتائج.

يقول الرحالة هوبير : إن عبد الله تزوج ابنة أمير جبل شمّر، محمد بن عبد المحسن بن علي، لكن بالرغم من هذا الزواج فإن خلافا حدث، بعد فترة قصيرة ، بين الأمير محمد وبين أسرة آل رشيد. وكانت النتيجة أن اضطر

---

(١) **نبذة** : ٣ــ٦٤. وانظر، أيضا، أمين الريحاني، **تاريخ نجد وملحقاته**، بيروت، ١٩٧٣م:٢٨٥. بل ورد في استجواب الإمام عبدالله بن سعود في تركيا أن جبراً كان رئيس كتّاب الإمام سعود. انظر محمد حسين زيدان، «الوثائق تتكلم»، **الدارة**، ربيع الأول ، ١٣٩٢ هـ : ١٨٤/١.

(٢) **نبذة** : ٦٣.

(٣) **عنوان** : ٢٢٥/١.

(٤) المصدر السابق : ٢٩٩/١ــ٣٠٠.

عبد الله وأخوه عبيد إلى مغادرة حائل[١] .

أما موزل فيعطي تفصيلات أكثر مما قاله هوبير عن هذا الموضوع . ذلك أنه يقول : إن عبد الله وعبيدا كانا شابين مقدامين. وكان لهما أتباع كثيرون بين المستقرين من سكان منطقة جبل شمّر لأنهما كانا يرافقان قوافل التجارة ويحميانها . وإزاء هذا الوضع حاول الأمير محمد بن عبد المحسن بن علي أن يكسب ودّ عبد الله ويتجنب خطر طموحه فزوجه ابنته. لكن هذا الزواج لم يضع حدا لمحاولات عبد الله التدخّل في أمور من اختصاص الأمير. وقد تطور الموقف إلى حدوث قتال بين كل منهما . وفي سنة ١٨٢٠م،(١٢٣٥ هـ) بعد مغادرة إبراهيم باشا وجنوده لنجد ، اضطر عبد الله وأسرته إلى ترك حائل.[٢] .

ويختلف بلجريف، نوعا ما، عن موزل في مسألة تحديد الفترة التي وقع الخلاف فيها بين أمير جبل شمّر وبين عبد الله بن علي بن رشيد، كما يختلف عنه، أيضا ، في قضية تحديد اسم ذلك الأمير ، وفي أسباب خروج عبد الله من حائل . فهو قد ترك الباب مفتوحا للاجتهاد في هذه القضية حين قال: إن الخلاف بين المذكورين وقع حوالى سنة ١٨١٨ أو سنة ١٨٢٠م، ولم يشر إلى أنه قد حدث بعد انسحاب إبراهيم باشا من نجد. كما أنه لم يذكر اسم الأمير الذي وقعّ الخلاف بينه وبين عبد الله وإنما اكتفى بالإشارة إليه بأنه من آل علي. ويعلل هذا الرحالة خروج عبد الله من حائل بضعف مؤيديه نتيجة وقوف أهل بلدة قفار مع أمير الجبل[٣] .

---

(١) هوبير : ١٥١.

(٢) موزل ، **شمال نجد** : ٢٣٧. ومن الواضح أن كلا من فؤاد حمزة (**قلب جزيرة العرب**: ٣٤١) وخيرالدين الزركلي (**شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز**، بيروت، ١٣٩٠ هـ: ١١٣/١) قد اعتمد على موزل في هذا الموضوع.

(٣) Palgrave, **Narrative of a year's Journey through Central and Eastern Arabia (1862-63)** London, 1865;120-1.

وسيشار إليه، مستقبلا، باسم مؤلفه، بلجريف، فقط. ويلاحظ أن بلجريف لم يتعرّض لقضية زواج عبدالله بن رشيد من ابنة أمير جبل شمّر من آل علي، وهو الأمر الذي قال عنه فهد المارك إنه قد تمّ بعد مقتل الأمير محمد بن عبدالمحسن. انظر «ملاحظات على كتاب موزل» **العرب**، محرم وصفر، ١٣٩٦ هـ :٥١٤ـــ٥١٥.

والمصادر السابقة يختلف بعضها عن بعض في سرد ما حدث لعبد الله وعبيد بعد مغادرتهما حائل حتى التحاق عبد الله بالإمام تركي بن عبد الله في الرياض. فالرحالة هوبير يقول : إن عبد الله وعبيدا، بعد تركهما لبلدة حائل، اختفيا في أجأ، وظلا يتسلّلان إلى البلدة ليلا ليقتاتا عند قريبة لهما. وحين علم الأمير محمد بن عبد المحسن بذلك رصد لهما رجالا بزعامة أحد عبيده المسمّى خير الله. وقد تمكن هذا الأخير من القبض على عبد الله ، وذهب به ليسلمه إلى الأمير . وحين اقتربا من بيته سأله عبد الله أن يتقدّمه. وحين فعل خير الله ذلك طعنه عبد الله بخنجره، وهرب تحت جنح الظلام. وعندئذ أجبر الأمير أبا عبد الله وعبيد على مغادرة حائل، حيث بقيت أسرته في الصحراء. أما عبد الله فإنه اتجه إلى العراق. وهناك استقام سنتين أبدى خلالهما من النشاط والذكاء ما أكسبه ثقة باشا ذلك القطر، ومكّنه من تسنّم بعض المناصب فيه. ثم اتجه من العراق إلى الرياض، حيث التحق بحاكمها أبي فيصل [١] .

أما موزل فإنه قد أورد روايتين عمّا حدث لعبدالله بعد خروجه من حائل. فقال في إحداهما : إنه ذهب إلى العراق، حيث استقر في الحلّة حتى بدأ ابن سعود يستعيد نفوذه فالتحق به [٢] . وقال في الثانية : إن عبد الله بن رشيد ذهب، بعد هروبه من بلدته ، إلى ابن رخيص في جُبَّة . ثم اتجه من هناك إلى قبيلة الفدعان. وأخيرا أقام على نهر الخابور في العراق. أما أتباعه فواصلوا سيرهم حتى نزلوا عند الجرباء في أعلى ذلك النهر. وكان سبب تأخره عنهم عدم ثقته بذلك الزعيم الذي كان قريبا لآل علي [٣] .

وأما بلجريف فإنه ذكر تفصيلات مختلفة عن تلك التي أشار إليها هوبير، حيث قال: إن عبد الله بن رشيد، بعد مغادرته حائل، حاول أن يذهب إلى الجوف لكنه اقتنع أخيراً بعدم وجود أنصار له هناك، فانصرف إلى وادي

(١) **هوبير** : ١٥١ــ١٥٢.

(٢) موزل : **شمال نجد**: ٢٣٧.

(٣) **Musil, the Manners and Customs of the Rwala Bedouins,** New York, 1928:204.

السرحان. وفي ذلك الوادي هاجمه قوم من عنزة وقتلو أكثر من كانوا معه. ثم أورد قصة شعبية يغلب عليها طابع الخرافة (١) وتنتهي هذه القصة بأن تاجرا مرّ بالمنطقة فوجد عبد الله وحمله إلى دمشق، حيث عالجه. ثم أعطاه زادا وراحلة وسلاحا ليعود إلى بلده، لكنه لم يذهب إلى حائل، وإنما مضى إلى تركي بن عبد الله في الرياض وأصبح من قادته العسكريين (٢).

وإذا تجاوز الباحث هؤلاء الغربيين الثلاثة إلى ضاري الرشيد وجد أنه يورد قصتين لخروج عبد الله وأخيه عبيد من حائل. إحداهما مرتبطة ببدء الخلاف الحقيقي بينهما وبين أمير البلدة، والثانية متعلقة بخوف أبيهما من حدوث خلاف بين أسرته وأسرة أبناء عمه، آل علي. فهو يقول في موضع من تاريخه : إن الخلاف بدأ وعمر وعبدالله عشرون سنة وعمر أخيه عبيد ثمانية عشر عاما. وكان الأمير، آنذاك، صالح بن عبد المحسن. وسبب الخلاف خروج هذين الشابين مع بعض أهل حائل لنصرة بادية شمّر ضد قبيلة عنزة دون موافقة الأمير. ومن هنا، غضب عليهما ونفاهما من البلدة (٣). ويقول في موضع آخر : إن أولاد علي بن رشيد كانوا يطلبون العلياء، وكان أبوهم الورع المتدين يردّهم عن الحركة ضد أبناء عمهم، فسافروا إلى العراق. ثم عادوا من هناك قبل وفاة أبيهم بسنة واحدة. وحين توفي هذا الأب نفاهم الأمير صالح حتى قدم عبيد على فيصل (٤).

وأول قضية تنبغي مناقشتها في ضوء ما ذكرته المصادر السابقة قضية خروج عبد الله بن رشيد وأخيه عبيد من بلدة حائل. فمن الثابت أن الأمير محمد بن عبد المحسن قد قتل بأيدي رجال إبراهيم باشا سنة ١٢٣٤ هـ، قبل

(١) تقول القصة : إن الذين هاجموا عبدالله ومن معه أمرّوا السكين على حلقه، كما فعلوا ببقية أصحابه، وتركوه معتقدين أنهم قضوا عليه، لكنه لم يمت. ذلك أن الجراد أحاط به وحثا بأجنحته وأرجله التراب على جرحه فتوقف نزف دمه. ثم إن القطا أتى إليه وظلّله عن الشمس، حتى مر به أحد التجار وحمله إلى دمشق.

(٢) **بلجريف** :١/١٢١-١٢٢. ومن الملاحظ أنه لم يشر إلى ذهاب عبدالله إلى العراق.

(٣) **نبذة** : ٦٠-٦١.

(٤) المصدر السابق : ٦٤.

انسحاب هذا الاخير من منطقة نجد(١). ومن هنا فإنه من غير الممكن أن يكون الخلاف قد حدث بين الأمير محمد وبين عبد الله، وأن يكون ، أيضا، قد تمّ بعد رحيل القائد المصري من هذه المنطقة، كما هو واضح من كلام موزل. ذلك أن الخلاف إن كان قد حدث بين الأمير محمد وبين عبد الله فلابد أنه قد وقع قبل انسحاب إبراهيم باشا من نجد. وإن كان قد تم بعد ذلك الانسحاب فمن المؤكد أنه كان بين عبد الله وبين أمير آخر غير محمد بن عبد المحسن.

وتفيد المصادر أن عبد الله بن علي بن رشيد عرف سُويّد بن علي في العراق(٢). وإذا توصل الباحث إلى اقتناع حول الفترة التي كان سويّد بن علي خلالها هناك فإن ذلك مما يساعده على اقتراح الزمن الذي غادر فيه عبد الله بن رشيد منطقة الجبل إلى ذلك القطر. والمتتبع للمصادر يرى أنها تذكر قدوم سويّد بن علي إلى جلاجل سنة ١٢٣٥ هـ (٣). ومنذ تلك السنة وهذه المصادر تتحدث عن نشاطه الكبير لا في بلدته فحسب وإنما في سائر منطقة سدير وما حولها. وقد ظل أميرا على بلدة جلاجل حتى عزله الإمام تركي بن عبد الله عن إمارتها آخر سنة ١٢٤٧ هـ (٤). ومن الثابت ، تاريخيا، أن سويّد بن علي كان موجودا مع مشاري بن عبد الرحمن أثناء حصار الإمام فيصل بن تركي له في مستهل سنة ١٢٥٠ (٥). وعلى هذا الأساس فإن هناك احتمالين لفترة وجوده في العراق: أحدهما أنه كان في ذلك القطر قبل نهاية ١٢٣٥ هـ، والثاني أنه كان هناك بين أواخر سنة ١٢٤٧ هـ ونهاية عام ١٢٤٩ هـ.

(١) **عنوان** : ٢٩١/١. وانظر صفحة ١٣ من هذه الدراسة.

(٢) **نبذة** : ٦٤. وذلك ما تتناقله الروايات الشفهية المحلّية أيضا.

(٣) محمد بن عمر الفاخري، مخطوط لم يضع له مؤلفه عنوانا، نسخه عبدالرحمن بن ناصر، مكتبة جامعة الرياض، رقم ٤٨. : ١٠٤ وسيشار إليه مستقبلا، باسم مؤلفه، الفاخري، فقط.

(٤) المصدر السابق : ٢ـ١٢٣، **عنوان:** ١٧/٢ ـ ٢١.

(٥) **نبذة** : ٣٥؛ **عنوان** : ٦٦/٢.

ومن الواضح أن الاحتمال الأول أقوى من الاحتمال الثاني بدرجة كبيرة . فذهاب سويّد بن علي إلى العراق قبل وصوله إلى إمارة بلده، واحتلاله منصبا رفيعا في منطقته كلها ، أقرب إلى طبيعة الأمور من ذهابه بعدما وصل إلى تلك الإمارة واحتلّ ذلك المنصب . وتعبير المصادر بأن سويّد بن علي قدم إلى جلاجل سنة ١٢٣٥ هـ يوحي بأن قدومه كان من مكان بعيد. ولعل مما يؤيد ذلك ما ورد على لسان ضاري الرشيد. فقد ذكر أن عبد الله بن رشيد استأذن الإمام فيصل بن تركي ، أثناء محاصرة مشاري بن عبد الرحمن ، أن يتصل بسويّد بن علي قائلا : «إن بيني وبينه صحبة قديمة قبل أن يتروّس في بلاده[١]». ولم تكن تلك الصحبة القديمة، فيما يبدو، إلا تلك المعرفة التي تمّت بينهما في العراق. ومن هنا ، فإن عبد الله بن رشيد كان في ذلك القطر قبل نهاية سنة ١٢٣٥ هـ.

وإذا كان مرجّحا أن عبد الله بن رشيد كان موجودا في العراق قبل التاريخ المذكور فمتى قدم إليه ؟.

يذكر ضاري الرشيد أن أولاد علي بن رشيد — وهو لم يشر إلا إلى عبد الله وعبيد — [٢] وصلوا إلى العراق والرئيس في شمّر بالجزيرة صفوق الجرباء ، وذلك في سنة ولاية داود باشا على بغداد[٣] . ومن المعلوم أن صفوق ابن فارس الجرباء قد أصبح زعيما لشمّر في تلك المنطقة بعد وفاة أبيه فارس سنة ١٢٣٣ هـ[٤] أما داود باشا فقد أتى إلى باشوية بغداد سنة ١٢٣٢ هـ[٥] . ولو أخذت عبارة ضاري «وذلك في سنة ولاية داود باشا

---

(١) نبذة: ٣٥. لكن يلاحظ أن ضاري الرشيد لم يكن دقيقا في بقية هذه العبارة حين قال: «وقبل أتروّس في بلادي». ذلك أن عبدالله لم يكن، آنذاك، قد أتى إلى رئاسة بلاده بعد. وعدم دقته هنا لم يكن أمرا استثنائيا، على أية حال.

(٢) يقال إن هناك أخا لعبدالله اسمه عبدالعزيز قد سافر معه إلى العراق وقتل في معركة الحلّة.

(٣) نبذة : ٦٤.

(٤) التاريخ السياسي : ٣٩و٤٢.

(٥) Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, Oxford,1925:238. وسيشار إليه، مستقبلا، باسم مؤلفه، لونجرج، فقط.

على بغداد» بما هو ظاهر منها فإن ذلك يعني وصول عبد الله وأخيه عبيد إلى العراق سنة ١٢٣٢ هـ. لكن اللهجة العامية التي روى ضاري الحوادث بها تجعل من المحتمل أن يكون المقصود بكلمة «سنة» في العبارة السابقة «عهد»، ويكون مراده في العبارة وذلك في عهد ولاية داود باشا على بغداد. والذي يرجّح هذا الاحتمال أمران: أحدهما أنه لو كان وصولهما سنة ١٢٣٢هـ لكان زمن رئاسة فارس الجرباء في قبيلة شمّر لا زمن رئاسة ابنه صفوق فيها. والثاني أن ضاريا ذكر بعد العبارة السابقة مباشرة أن صفوق بن فارس خرج على داود، وأن أبناء [1] الرشيد أبلوا عنده بلاءً جيدا. ومن المعروف أن اختلاف صفوق مع الباشا داود كان بعد خمسة عشر عاما من التاريخ السابق الذكر [2]. ولذلك، فإنه من المتعذر الاعتماد على رواية ضاري المذكورة بهذا الصدد.

وتذكر بعض الروايات أن عبد الله بن رشيد كان ممن حضر معركة الحلّة[3] .والحادثة الشهيرة التي نهبت فيها قبيلة شمّر هذ البلدة كانت سنة ١٢٢٩ هـ[4] . ومن المعقول جداً أن يكون عبد الله بن رشيد قد حضر تلك الحادثة لأن عمره، آنذاك ، كان حوالى خمس وعشرين سنة [5] . لكن

(١) الأصح لغويا أن يستعمل المثنى لأنه يتحدث عن عبدالله وعبيد فقط. لكن اللهجة العامية نادرا ما استعمل المثنى فيها.

(٢) **التاريخ السياسي** :٥٢ـ٥٥.

(٣) **نبذة** : ٦٤ ، الدخيل، **القول السديد** .. ملحق **نبذة** : ١٤٨.

(٤) **التاريخ السياسي** : ٣٨.

(٥) كانت وفاة عبيد بن رشيد سنة ١٢٨٦ هـ. وكان له من العمر ثمانون سنة. انظر **هوبير**: ١٥٩ وموزل، **شمال نجد**: ٢٤١. وذلك يعني أنه قد ولد سنة ١٢٠٦ هـ وإذا قبل كلام ضاري الرشيد بأن عبدالله كان أكبر من أخيه بسنتين (**نبذة** :٦٠) فإن عبدالله قد ولد سنة ١٢٠٤ هـ.

أما ما ذكره سليمان الدخيل (**القول السديد**.. ملحق **نبذة** : ١٤٨) من أن عبدالله بن رشيد قد حضر معركة كربلاء مع ابن سعود فغير صحيح. ذلك أن غزو سعود بن عبد العزيز لكربلاء كان سنة ١٢١٦ هـ. انظر **عنوان** :١/١٦١. وكان عمر عبدالله في تلك السنة، بناء على ما ذكر سابقا، اثني عشر عاما فقط.

المصادر التي تروي حضوره لتلك الحادثة تذكر أنه حضرها ورئيس قبيلة شمّر صفوق بن فارس الجرباء. ومن الواضح أن حادثة الحلّة المشار إليها كانت قبل تولّي صفوق زعامة قبيلته بأربع سنوات تقريبا. ومن المحتمل أن عبد الله بن رشيد حضر حادثة الحلّة الشهيرة، وحضر ـــ فيما بعد ـــ معركة أخرى قام بها صفوق. ومن هنا، خلطت المصادر المذكورة بين حضوره حادثة الحلّة قبل زعامة صفوق وبين حضوره لمعركة مع ذلك الزعيم بعد تولّيه الزعامة (١).

وعلى أية حال، فإن الدلائل تشير إلى أن عبد الله بن رشيد خرج من حائل إلى العراق فى عهد الأمير محمد بن عبد المحسن بن علي. لكن خروجه من بلده في تلك الفترة لم يكن ، على الأرجح ، نتيجة خلاف بينه وبين ذلك الأمير ، وإنما طلبا للرزق. ومما يؤيد هذا الترجيح ما ورد في آخر كلام ضاري الرشيد وهو يتحدث عن ذهاب ابني علي بن رشيد إلى العراق حيث قال: «وقد كان في الزمن السابق من قصرت عليه المعيشة في بلاده من أهل نجد انحدر إلى العراق» (٢). ومما يؤيده ، أيضا ، ما ذكره هذا المؤلف فى موضع آخر من نبذته من أن الخلاف قد حدث بين ابني علي بن رشيد ، عبد الله وعبيد، وبين الأمير صالح بن عبد المحسن (٣)..

وإذا كان السفر من نجد إلى العراق لطلب الرزق أمرا متّبعا حتى فترة غير بعيدة من وقتنا الحاضر فإن السنوات الأخيرة من عمر دولة الدرعية كانت من السنوات المشجّعة لمثل ذلك السفر. فلابد أن بعض الناس قد أدركوا أن الأمور لم تعد تسير في صالح تلك الدولة نتيجة لرجحان كفة قادة الغزو

---

(١) يلاحظ أن الفاخري (صفحة ١١٤) ذكر أنه في سنة ١٢٤١ هـ «نَهْب حلّة بغداد»، وإذا كانت هذه العبارة المختصرة تعني نهب الحلّة الموجودة في العراق فعبّر عن القطر بعاصمته فإن ذلك يشير إلى تعدّد نهب هذه البلدة.

(٢) **نبذة** : ٦٤.

(٣) المصدر السابق : ٦٠.

المصري العثماني عليها. وكان أن انضم هذا العامل الجديد إلى العامل السابق والأهم فغادر عبد الله ومن معه حائل إلى العراق.

وتختلف الأقوال في سيرة ونشاط عبد الله بن رشيد، بالذات، خلال إقامته في العراق [١]. فأحد خصومه ذكر في شعره أن سيرته هناك كانت سيئة [٢]. لكن الشعر لا يخلو من المبالغة والتجنّي أحيانا، خاصة إذا كان المجال مجال تحدّ وهجاء. والمتداول عند كثير من النجديين أن نشاط عبد الله في ذلك القطر، خلال فترة من وجوده هناك، لم يخرج عن إطار النشاط الذي يقوم به عادة أفراد القبائل البدوية من نهب يتّسم بالجرأة والمخاطرة [٣]. لكن ضاري الرشيد، وهو من أسرة عبد الله ، يقول : إنه وأخاه عبيداً قد أكرما من قبل رئيس شمّر صفوق الجرباء، وإنهما أبليا بلاءً حسنا في الحروب التي دارت بينه وبين خصومه [٤]. وقد يكون ما ذكره ضاري هنا فى فترة غير الفترة التي يتحدث عنها كثير من النجديين، وأن ما يتحدث عنه هؤلاء كان أثناء وجود عبد الله في العراق قبل مجيء صفوق إلى الزعامة. أمّا ما ذكره هوبير من أن عبد الله كسب ثقة باشا العراق، واحتلّ بعض المناصب هناك فقد ورد في بعض الوثائق ما قد يعتبر مؤيدا له إلى حدّ ما. ذلك أن خورشيد باشا ذكر فى إحدى رسائله إلى حاكم مصر، محمد علي باشا، أن عبد الله بن رشيد «كان في الزمن السابق رئيساً لعساكر عقيل من أهالي نجد، الذين كانوا في طرف والي بغداد»[٥]. وقد أرسل خورشيد هذه الرسالة إلى زعيمه واصفا عبد الله بالإخلاص والمقدرة ومؤملا أن يعُيَّن له راتب شهري. لذلك فإنه من المحتمل أن ما ذكره عنه من رئاسة لعساكر عقيل كان الهدف منه المبالغة في إبراز مكانته للتأثير على

---

(١) أكثر المصادر لا تشير إلى عبيد في هذه الإقامة.

(٢) انظر ملاحظات المارك على موزل في مجلة **العرب**، محرم وصفر، ١٣٩٦هـ:٥٦٤ــ٥٦٥.

(٣) كثير من الرواة الشفهيين يتداولون ذلك ويقولون إنه كان يزاول «الحنشلة».

(٤) **نبذة** : ٦٤.

(٥) محفظة ٢٦٤ عابدين.

الوالي المصري ليستجيب لما طلبه منه خورشيد. ومن الملاحظ أن المصادر المحلّية المهتمة بتاريخ تلك الفترة في كل من العراق ونجد لم تذكر وصول عبد الله إلى منصب رفيع في العاصمة العراقية، كما أنها لم تذكر أنه كان رئيسا لعساكر عقيل في العراق.

وطبقا لما ذكر ضاري الرشيد فإن عبد الله وأخاه عبيداً أقاما في العراق «سنين قلائل»، ثم عادا إلى حائل تحقيقا لرغبة أبيهما، الذي توفي بعد وصولهما بسنة واحدة [١]. ويذكر أحد المصادر أن أباهما توفي سنة ١٢٤٠ هـ. [٢]. لكنه من الواضح أن عبدالله كان في حائل في بداية سنة ١٢٣٨ هـ على الأقل، لأن ابنه طلال بن عبد الله قد ولد تلك السنة. فقد كانت وفاة طلال سنة ١٢٨٣ هـ وكان عمره حين توفي خمسة وأربعين عاما [٣].

ومن المحتمل أن عبدالله وعبيداً قد لعبا دوراً معيّنا في حماية القافلة التي قدما معها من العراق. وذلك أمر يتفق مع ما ذكره الرحّالة موزل عن شهرتهما لدى حاضرة الجبل نتيجة الدفاع عن قوافل التجارة [٤]. وإذا كان هذا قد حدث فإنه، بدون شك، قد أسهم في تنمية رصيدهما الاجتماعي. وبإضافة ذلك إلى ما ذكرته بعض المصادر عن نشاطهما في العراق فإن ذلك الرصيد كان مرتفعا عند وصولهما إلى حائل. ولا شك أن إدراكهما لهذا الموقف قد نمّى، بدوره، طموحهما إلى الزعامة بدرجة كبيرة. وإذا كان أبوهما، علي بن رشيد، غير راغب في قيامهما بأية حركة ضد أبناء عمومتهما، آل علي، فإن وفاته كانت بمثابة زوال عائق من عوائق الاحتكاك والنزاع بين الطرفين.

---

(١) **نبذة** : ٦٤.

(٢) سعود بن سند الرشيدي، **التحفة الرشيدية في الأشعار النبطية**، الكويت : ٢/٤٣.

(٣) ذكر ضاري الرشيد (**نبذة** :٧٨) أن عمر طلال سنة ١٢٦٣ هـ كان خمسا وعشرين سنة.

(٤) موزل، **شمال نجد** : ٢٣٧.

كان أمير منطقة الجبل في تلك الفترة صالح بن عبد المحسن بن علي.وكان قد تولّى الإمارة، على الأرجح، بعد مقتل أخيه محمد بأيدي رجال إبراهيم باشا سنة ١٢٣٤ هـ، كما ذكر سابقا [١]. ورواية ضاري الرشيد عن بداية الخلاف بين الأمير صالح وبين كل من عبد الله وعبيد تبدو مقبولة بوجه عام، وإن كانت بعض تفصيلاتها غير واضحة. وتشير هذه الرواية إلى أنه كان هناك نزاع بين بادية جبل شمّر وبين فريق من قبيلة عنزة برئاسة سعدون العواجي وابنيه عقاب وحجاب. وكانت كفة سعدون وأتباعه راجحة لدرجة أنهم وصلوا إلى منطقة قريبة من حائل ذاتها، وضايقوا باديتها. وكان متوقعا أن تتحرك حاضرة تلك البلدة لمساعدة بادية الجبل. لكن الأمير صالح بن عبد المحسن، كما يدّعي ضاري، لم يكن ذلك القادر على اتخاذ موقف قويّ في صالح سكان الجبل. وقد أدّى هذا الأمر إلى خروج جماعة من أهل حائل، وفي مقدمتهم عبد الله وعبيد، لنجدة باديتهم دون موافقة الأمير، أو دون استشارته. وكان لوصولهم إلى أرض المعركة أثر في تغيير مجراها لصالح شمّر. واضطرت قبيلة عنزة إلى الانسحاب [٢].

وإذا كان ما ذكره ضاري صحيحاً ـــ وهو قابل للصحة ـــ فإن الانتصار المذكور قد زاد، بدون شك، من مكانة عبد الله وعبيد لدى مجتمعهما، كما زاد من ثقتهما وطموحهما إلى الزعامة. وفي نفس الوقت لابد أن ذلك الانتصار قد ولّد الغضب عليهما والخوف منهما في نفس الأمير صالح. وكانت النتيجة أن أجبرهما على مغادرة البلدة [٣].

والمشهور أن عبد الله وأخاه عبيداً، بعد نفيهما من حائل، اختفيا فترة في مكان معيّن من أجأ. ويبدو أن المقرّبين من أصدقائهما كانوا يعرفون ذلك المكان. ويبدو، أيضا، أن زوجة عبد الله قد ذهبت إليه هناك برفقة أحد

---

(١) انظر صفحة ١٣ من هذه الدراسة.

(٢) **نبذة** : ٦٠ ـــ ٦١.

(٣) المصدر السابق : ٦٢.

هؤلاء، وهو حسين بن جراد [(١)]. وفي قصيدة عبد الله، التي يخاطب فيها حسينا ويدعوه إلى الرفق بتلك الزوجة ، ما يوحي بذلك:

يا حسين والله ما لها سبت رجلين
يا حسين شيّب بالضمير هكعانَه(٢)
ارفق بها يا حسين واتبع بها اللين
والى مشت ياحسين فامش مشيانَـــه(٣)
ارفق بمضنون سكن حاجر العين
واشلق لها من راس ردنك ليانه(٤)
يا حسين مايشتك كود الرديّين
والّا ترى الطيّب وسيع بطانه(٥)

(١). هناك رواية شفهية حول هذا الموضوع ذكرها لي الأخ الشاب مشعل آل علي. وفيها أن عبدالله بن رشيد اتصل سراً بزوجته ليتأكد من استمرار رغبتها في الحياة معه. وحين أجابته بالإيجاب عملت حيلة تمكنت بها من إشغال حرس البيت الذي كانت فيه، وذهبت إلى زوجها برفقة أحد أصدقائه.

(٢) مالها سبت رجلين : ليست لابسة نعلا. شيّب بالضمير: آلم النفس كثيرا. هكعانه: تأرجحها في مشيتها الناتج عن الإعياء الشديد.

(٣) الى : إذا. امش مشيانه: سايرها في مشيها لئلا تزيد في مشقتها.

(٤) مضنون : محبوب. الردن: كمّ الثوب الواسع. وقد أراد بشطر البيت حث صديقه على أن يشق قطعة من طرف كمه ليجعلها لزوجته الحافية بمثابة النعل.

(٥) مايشتكّ : لا يشك في نوايا الناس . كود: سوى. والّا ترى الطيّب : واما الطيّب. وسيع بطانه: كناية عن أن الطيّب من الناس لا تخامر نفسه الشكوك في الآخرين وإنما يثق بهم.

والأبيات السابقة من رواية محمد العلي العبيّد . وهو من المهتمين بتاريخ هذه البلاد الحافظين لأخبارها وأشعار أهلها. ولد في عنيزة سنة ١٣٠٣ هـ، على الأرجح ، وتعلم فيها القراءة والكتابة ومبادىء قواعد اللغة العربية. وقد تنقّل في البادية للتجارة. وكان في فترة من فترات شبابه إماماً لهذّال الشيباني، كما أصبح، فيما بعد، إماماً لخالد بن لؤي في الخرمة. ومن الأمور التي مرت بها حياته أن أصبح موظفا في الديوان الملكي. وقد توفي ، رحمه الله، في عنيزة في رمضان سنة ١٣٩٩هـ.

وتروى الأبيات المذكورة بطرق متعددة. ومن هذه الطرق رواية تجعل بيتا بين البيتين الأخيرين، وهو:

وان شلتها يا حسين ترى ما بها شين ترى الخويّ يا حسين مثل الامانه

والمعنى يستقيم بوجود هذا البيت أكثر من استقامته بدونه.

وربما كان هناك أساس من الصحة لما ذكره هوبير من أن عبد الله وعبيداً كانا يتسللان من مخبئهما إلى حائل خلال الليل أحيانا. وإذا قُبِل ، أيضا، ما ذكره هذا الرحّالة من فشل خطة أمير تلك البلدة في اعتقالهما واحتيال عبد الله بأحد عبيده وقتله [1] فإن ذلك، حتما، سيزيد من حنق الأمير عليهما. فكان منه ما ذكره ضاري الرشيد من حدّة بلغت إلى درجة إخراج أمّهما من حائل في حالة شاقة. وذلك ما تتضمنه قصيدتها التي تقول فيها:

يا نور عيني يا مودّة فؤادي
ماكنيّ الّا من خمام الدراويش[2]

جلّونْ بالقيظ الحمر عن بلادي
وديرة هلي فوقي كماغبّة الهيش[3]

عسى يجي عدل وممشاه قادي
وتكثر عذار اللّي يدور التحاويش[4]

ومن المرجحّ أنه بعد تلك الحوادث ذهب عبد الله مرة أخرى إلى العراق، وبقي أخوه عبيد مع أسرتهما في أحد الأماكن من منطقة الجبل. ويفهم من عبارة ضاري الرشيد أن عبد الله قد اشترك مع زعيم شمّر، صفوق الجرباء،في حربه ضد والي بغداد، داود باشا[5] . والحادثة الوحيدة التي ذكرت المصادر

---

(١) انظر صفحة ٢٣ من هذه الدراسة. وهوبير يذكر أن القصة حدثت زمن إمارة محمد بن عبدالمحسن. لكنه من الواضح أنها وقعت زمن إمارة أخيه صالح.

(٢) ماكنّي : ما كأني . خمام الدراويش:فقراء الدراويش، والدراويش هنا يقصد بهم حجاج المشرق، خاصة الهنود، الذين يعبرون نجداً على أقدامهم إلى الحجاز لأداء الحج.

(٣) جلّونْ : أجلوني. القيظ الحمر: يقصد به شدّة الحر. الهيش: النخل غير المعتنى به.

(٤) **نبذة** : ٦٢. وواضح في البيت الأخير أن أم عبدالله تدعو أن يأتي يوم يزول فيه الظلم الذي نزل بها وبأسرتها وتعود حالها إلى ما كانت عليه أو إلى أحسن مما كانت عليه.

(٥) المصدر السابق : ٦٤.

أن ذلك الزعيم خرج فيها على داود كانت سنة ١٢٤٧ هـ، حين وقف مع علي رضا ضده[١].

ومن المرجّح أن عودة عبد الله بن رشيد الأخيرة من العراق إلى نجد كانت خلال سنة ١٢٤٧ هـ، أو في بداية السنة التي تلتها. كما أنه من المرجّح أن التحاقه بالإمام تركي بن عبد الله في الرياض تمّ بعد هذه العودة. أمّا ما ذكرته بعض المصادر من أنه التحق بالإمام المذكور قبل سنة ١٢٤٣ هـ، وأنه ساعده في إجبار أمير جبل شمّر على الاعتراف بالتبعية لذلك الإمام [٢] فيبدو غير صحيح. فالواضح من كلام ابن بشر، المؤرخ المقرب من الإمام تركي، أنه لم يقع أي إجبار على أمير الجبل للانضمام إلى دولة الرياض، كما ذكر سابقا[٣]. ومن المستبعد أن يكون عبد الله بن رشيد قد التحق بالإمام تركي قبل التاريخ المذكور، وأن يكون على صلة وثيقة بابنه فيصل، دون أن يرد اسمه في الأحداث المهمّة التي وقعت بين سنة ١٢٤٢ هـ وبين مقتل ذلك الإمام آخر سنة ١٢٤٩ هـ.

وعلى أية حال، فإن عبد الله بن رشيد قدم إلى الإمام تركي بن عبد الله في الرياض ومعه من الصفات ما يشجّع الحاكم على اكتسابه، وعنده من التجربة في بلدته وخارجها ما يؤهله لاحتلال منزلة رفيعة لديه. وكان أن أصبح من الأصدقاء المقربين إلى ابنه فيصل بصفة خاصة. ومن هنا، كان من كبار الذين رافقوا ذلك الأمير في غزوته إلى جهة القطيف سنة

---

(١) **عنوان** : ٥٢/٢ ، **التاريخ السياسي** : ٥٢، **لونجرج** : ٦٥و٢٦٨. وخلال الصراع الذي دار بين والي بغداد وخصومه تلك السنة احترق كثير من المجوهرات والأشياء الثمينة في قصر الباشوية، ووقع بعض ما سلم من الاحتراق في أيدي من أسعفهم الحظ من عقيل وغيرهم. انظر **لونجرج** ٦٩ ــ٢٧٠. وربما كان عبدالله بن رشيد من بين هؤلاء. وإذا كان قد حصل على شيء من ذلك فإنه من المحتمل أن يكون قد أهدى شيئا منه إلى الإمام تركي بن عبدالله حين وفد إليه. وذلك قد يفسر ما أشار إليه سليمان الدخيل في **القول السديد** ملحق **نبذة**: ١٤٨. وإن كان سليمان قد ذكر خطأ ــ على الأرجح ــ أن ما أهداه عبدالله كان قد كسبه من معركة الحلّة وكربلاء.

(٢) انظر موزل، **شمال نجد**: ٢٣٧ وفؤاد حمزة، **قلب جزيرة العرب**:٣٤٢.

(٣) **عنوان** : ٤١/٢. وانظر صفحة ١٤ من هذه الدراسة.

١٢٤٩ هـ (١) . ومنذ هذه الغزوة بدأت خطوات عبد الله المهمّة نحو إمارة بلده، جبل شمّر.

بينما كان فيصل وأتباعه في الجهة المذكورة سابقا قدم إليه أحد مماليك أبيه المشهورين ــ واسمه زويّد ــ حاملا معه خبر اغتيال سيده، الإمام تركي، بمؤامرة دبّرها مشاري بن عبد الرحمن آل سعود، وإجبار هذا الأخير سكان العاصمة على مبايعته بالحكم (٢).

---

(١) **عنوان** ٢/٦٥.

(٢) مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن مشاري بن سعود كان ممن نقلهم إبراهيم باشا من نجد إلى مصر بعد استسلام الدرعية له. وحين نجح خاله الإمام تركي بن عبدالله في إنشاء الدولة السعودية من جديد أرسل إليه يحثّه على المجيء إلى نجد ضمن قصيدته المشهورة التي مطلعها:

طار الكرى من موق عيني وفرّا   وفزّيت من نومي طرى لي طواري

وعاد مشاري بن عبد الرحمن إلى نجد سنة ١٢٤١ هـ، فأكرمه خاله وجعله أميرا على منفوحة. لكنه عزله عن إمارتها سنة ١٢٤٥ هـ إثر ما أشيع عنه من تآمر على قتله. وبينما كان الإمام غازيا في شمال الجزيرة العربية سنة ١٢٤٦ هـ خرج مشاري من الرياض ثائرا ضده. لكنه فشل في الحصول على تأييد النجديين، فتوجه إلى شريف مكة، محمد بن عون. وهناك فشل، أيضا، في الحصول على أية معونة ضد الإمام تركي. ولهذا عاد إلى نجد، حيث نزل المذنب ورجا أهلها أن يشفعوا له عند خاله الإمام. وعفا عنه تركي، لكنه وضعه تحت المراقبة في الرياض. وذلك سنة ١٢٤٨ هـ. على أن رغبة مشاري في انتزاع الحكم من خاله ظلت طاغية على تفكيره. لذلك استغل فرصة غياب ابنه فيصل عن العاصمة فدبّر المؤامرة المذكورة لاغتياله آخر سنة ١٢٤٩هـ (**عنوان**:٢/٥١و٦٣ـــ٦٥).

ويذكر موزل (**شمال نجد**: ٢٣٧) أن مشاري بن عبد الرحمن قتل تركي بن عبدالله بواسطة الذهب المصري. كما يذكر (المصدر السابق: ١ــ٢٧٢) أن للقائد إسماعيل بك دوراً في هذا الموضوع، وأن الأتراك ــ هكذا ــ اعترفوا بحكومة مشاري بعد اغتياله لخاله.

ومن الواضح أن شعور الإمام تركي نحو المصريين كان غير ودّي، كما عبّر عنه في قصيدته المشار إليها سابقا. لكن يلاحظ أن مشاري بن عبدالرحمن بدأ يحاول التخلّص من خاله منذ سنة ١٢٤٥ هـ. كما يلاحظ أن شريف مكة المؤيد للمصريين، آنذاك، لم يساعده ضد الإمام تركي. ومن هنا فإنه من المرجّح أن الدافع الأكبر لمشاري كان ذاتيا، وهو الرغبة في السلطة . وهذا لا يمنع أن حاكم مصر عزم أخيرا على إخضاع حكام نجد له، كما ظهر بعد فترة قصيرة من تولّي فيصل الحكم. ومن المعروف أن وصول إسماعيل بك مع خالد بن سعود إلى نجد لم يحدث إلا سنة ١٢٥٢ هـ. (**عنوان**: ٢/٨٨). أي بعد حوالي سنتين من اغتيال الإمام تركي. أمّا ما ذكره هذا المؤلف عن اعتراف الأتراك بحكومة مشاري فينبغي أن يلاحظ أن ذلك الأمير حوصر من قِبَل فيصل بعد ثمانية عشر يوما من مقتل تركي، وأنه قضي عليه بعد أربعين يوما من استيلائه على السلطة. ومن المستبعد أن يحصل الاعتراف المذكور خلال هذه المدة القصيرة.

وبناء على ما ذكره ابن بشر فإن فيصل بن تركي أبقى الخبر الذي حمله إليه زويّد سراً، ورحل بأتباعه من جهة القطيف إلى الأحساء. وعلى مقربة من هذه البلدة جمع زعماء قومه وأطلعهم على ما حدث في الرياض فبايعوه على السمع والطاعة واجتمعت الكلمة على السير من هناك، والإسراع إلى محاربة مشاري[١].

ومن الملاحظ أن ابن بشر خصّ عبد الله بن رشيد من بين أولئك الزعماء بقوله: وكان ذا رأي وشجاعة . وهذا يؤيد ما هو متداول بين كثير من الرواة النجديين من أن عبد الله كان صاحب فكرة إخفاء نبأ مقتل الإمام تركي، والتوجّه بسرعة إلى الرياض[٢] . وعلى أية حال ، فإن دور عبد الله لم يقف عند حد المشورة والتخطيط — وذلك بحد ذاته مهمّ جدا — وإنما تجاوز ذلك إلى العمل والتنفيذ، كما سيأتي بعد قليل.

هذا وقد وصل فيصل بن تركي بأتباعه من المنطقة الشرقية إلى الرياض بعد مقتل أبيه بثمانية عشر يوما فقط [٣] . وكان واضحا منذ وصوله إلى هذه البلدة أن كفته راجحة على كفة خصمه. فتقدير سكانها للإمام تركي كان عظيما . واغتياله قد ترك، بدون شك، أثراً عميقا في نفوسهم، وجعلهم مستعدين للوقوف مع من سينتقم من مغتاليه . ولعل أكبر دليل على ذلك أن من كانوا قد وضعوا في بروج أسوار المدينة للدفاع عنها فرحوا برؤية فيصل ورجاله، وساعدوا أتباعه في الدخول إليها. وحين وقع الحصار على مشاري

---

(١) **عنوان:** ٢/٦٥. وقد قال ابن بشر ، هنا، عن عبدالله بن رشيد بأنه رئيس الجبل. ومعروف أنه لم يكن، آنذاك، قد أصبح رئيسا للمنطقة المذكورة. وقد ذكر ضاري (**نبذة:** ٣٥) خطأ أن فيصل بن تركي كان غازيا في عمان حين بلغه خبر مقتل أبيه، فاتجه إلى القصيم. وهناك أتى إليه عبدالله بن رشيد وسار معه إلى مشاري.

(٢) يذكر هوبير(١٥١ ١٥٢) أن عبد الله بن رشيد علم بخبر مقتل الإمام تركي قبل ابنه فيصل وذلك بورود رسالة إليه من الرياض مع قادم إلى الغزو، وأنه قام بإخبار فيصل بالموضوع. لكن رواية ابن بشر تبدو أصح لقربه زمنا من الحادثة ولصلته الوثيقة بقادة آل سعود.

(٣) **عنوان** : ٢/٦٦

ابن عبد الرحمن في القصر كان معه مائة وأربعون رجلًا. وكان من بين هؤلاء سويّد بن علي، الذي كانت تربطه بعبد الله بن رشيد صداقة قديمة حين كانا في العراق، كما ذكر سابقا [١]. ولم يكن غريبا أن يوجد سويّد بن علي إلى جانب مشاري بن عبدالرحمن ؛ فعلاقته بالإمام تركي قد أصبحت غير طيبة في نهاية الأمر، كما هو واضح من عزله عن إمارة جلاجل أواخر سنة ١٢٤٧ هـ [٢]. وكان يهمّه ، في الدرجة الأولى ، أن يجد طريقه إلى إمارة بلدته مرة أخرى. ومن هنا أسرع إلى الانضمام إلى المسيطر الجديد على أمور العاصمة، آملا أن يحصل على هدفه [٣]..

وكانت نهاية مشاري بن عبد الرحمن بعد بدء محاصرته في القصر معروفة. فلم تكن مسألة انهياره والقضاء عليه إلا مسألة وقت فقط. ذلك أن فيصل ابن تركي المحاصر له كان يحظى بتأييد سكان العاصمة. ومن المرجّح أنه كان يحظى، أيضا، بتأييد غيرهم من المناطق الأخرى. ويبدو أنه لم يكن لدى مشاري من المؤن والعتاد ما يمكّنه من الصمود مدة طويلة. ومن الصعب قبول مبالغة ابن بشر الظاهرة حين يقول عنه وعن رجاله الذين كانوا معه:

«وهم في حصن حصين، وعندهم من السلاح وآلات الحرب كمين فوق كمين، وعندهم من الأزواد وفواكه المطاعم ما لو حاربوا مائة سنة لكفاهم» [٤].

---

(١) انظر صفحة ٢٥ من هذه الدراسة.

(٢) **الفاخري** : ١٢٢ــ١٢٣.

(٣) يذكر ضاري الرشيد (**نبذة**: ٣٥) أن سويّد بن علي أتى إلى مشاري. وحين بدأ الحصار أكرهه مشاري على البقاء عنده. أما مجيء سويّد إلى مشاري فأمر مرجّح. لكن قضية إكراهه على البقاء معه تبدو غير صحيحة، لأنه كان بإمكان سويّد أن يهرب من أول يوم حوصر فيه القصر، ولأنه من المستبعد أن يستفاد بمن هو مكره في عملية دفاع. والمحتمل أن اتفاقا قد وقع بين الرجلين يقف بموجبه سويّد مع مشاري مقابل إعادته إلى إمارة جلاجل. ولأن هذه الإمارة كانت هدف سويّد فإنه وقف مع مشاري في بداية الأمر. وحين رأى بوادر نجاح خصمه فيصل تخلّى عنه وانضم إلى هذا الخصم بعد أن وعده بتحقيق ما كان يهدف إليه وهو العودة إلى إمارة جلاجل.

(٤) **عنوان** : ٢/٦٦ــ٦٧.

ومن الواضح أن هدفه من كلامه هذا التأكيد على أن الظلم مرتعه وخيم، وعلى أن الله كان بجانب صديق ذلك المؤلف، الإمام فيصل. وطبقا لما ذكره هذا المؤرخ فإن فريقا ممن كانوا محاصرين مع مشاري فقدوا الثقة بموقفهم فنزلوا من القصر بعد عشرين يوما من بدء الحصار، وأخبروا أتباع فيصل بن تركي أن الخوف قد دبّ في نفوس المحاصرين. وبعد يومين من نزول هؤلاء طلب بعض من كانوا في القصر من سويّد بن علي أن يأخذ لهم أمانا من فيصل. وكان أن اتصل سويّد به، وطلب منه الأمان على نفسه وماله ومن كان عنده في القصر إلا من باشر قتل الإمام تركي أو ساعد على قتله. وحين وافق فيصل على ذلك أدليت حبال من القصر فتسلق بواسطتها أربعون رجلا بقيادة عبد الله بن رشيد وبداح العجمي وعبد الله بن خميس. وقد نجح هؤلاء في قتل مشاري وعدد من رجاله وأخرجوا جسده ورأسه من القصر ليراه الناس وكان ذلك في الحادي عشر من شهر صفر سنة ١٢٥٠هـ.(١)

ويلاحظ أن ابن بشر لم يبيّن كيف تمت عملية اتصال سويّد بفيصل، كما يلاحظ أنه قال عن ابن رشيد «الليث الشجاع والصارم القطّاع». وهذا وذاك يدلّان على أن الروايات التي أبرزت دور عبد الله بن رشيد الكبير في هذه القضية راجحة جدا.

أمّا ضاري الرشيد فيقصّ خبر محاصرة مشاري وما نتج عنها بصورة تختلف عمّا رواه ابن بشر في بعض التفصيلات، لكنها تقرب كثيرا مما يرويه كثير من الرواة المحلّيين. ذلك أنه يقول ما معناه إن عبد الله بن رشيد أخبر ذات ليلة بمكان سويّد بن علي في القصر فاستأذن فيصل بن تركي في الاتّصال به للصداقة القديمة التي كانت تربط بينهما(٢). وحين أذن له اقترب من المكان

(١) المصدر السابق : ٢/٦٦ — ٦٧.

(٢) يبدو أن أولئك الذين ذكر ابن بشر أنهم نزلوا من القصر قبل يومين من التفاوض مع سويّد هم الذين أخبروا عبدالله بن رشيد بمكان هذا الأخير.

الذي يوجد فيه سويّد، وكلّمه بكلام يدل على شخص من تكلّم به. واتفقا على أن يبعث سويّد في الليلة التالية رأيه في القضية وموقفه منها. وكان أن قال سويّد لعبد الله إنه مغلوب على أمره وإنه يودّ أن يعرف ماذا سيحصل عليه مقابل التعاون مع فيصل. وقد فسّر عبد الله تساؤله هذا للإمام فيصل بأنه يريد رئاسة بلده له ولأولاده من بعده. وحين وافق الإمام على ذلك عرض سويّد على عبد الله أن يصعد إلى القصر بالجبال ومعه ثلاثون رجلا من الشجعان. وأخبره أنه مع عشرة من الذين تشابه أوضاعهم وضعه سوف يعاونونهم، أو على الأقل سيقفون على الحياد بينهم وبين مشاري ورجاله. وحين صعد عبد الله ومن معه إلى القصر، وعلم بهم مشاري دارت بينه وبين عبد الله مشادّة كلامية. وفي الصباح بدأت المعركة بين الطرفين، وأصيب مشاري برصاصة من أحد أتباع عبد الله وتفرق رجاله إلا واحدا من عبيده الأقوياء ظل يقاوم ببسالة (١). وحين أعياهم أمره فكّر عبد الله في حيلة للإيقاع به، فاختفى في مكان معيّن وباغته من الخلف. وكان قد اتفق مع أصحابه أن يسرعوا إليه حين يسمعون نداءه. ولما فعل ذلك أتوا إليه. وكانت النتيجة أن قتل ذلك العبد. وقد أصيب عبد الله بجروح في يديه من جراء شدّ العبد سلاحه عليهما. أمّا مشاري فقد لجأ إلى مسجد القصر، وفتح المنتصرون الباب فدخل فيصل وأغلظ لمشاري القول. ثم أمر بإخراجه من المسجد وقتله (٢).

على أن هناك روايات أخرى عن الطريقة التي تمّ بها القضاء على مشاري

---

(١) المشهور أن هذا العبد هو أبو حمزة الذي قتل الإمام تركي بن عبدالله. انظر **نبذة**: ٣٩، هامش ١. وقارنه **بعنوان** : ٢/٦٤.

(٢) **نبذة** : ٣٥—٤١. ومن الواضح خطأ هوبير (٢—١٥٣) حين قال إن ابن ثنيان هو الذي قتل أبا فيصل، وإن فيصلا هو الذي طعن العبد حين اشتباكه مع عبدالله بن رشيد. أمّا ما ذكره موزل (**شمال نجد**:٢٧٢) عن هذا الموضوع فقريب مما ورد في ابن بشر، الذي كان أحد مصادره.

ابن عبد الرحمن [١]. لكن مهما كانت اختلافات المصادر في التفاصيل فإنها متفقة على أن عبد الله بن رشيد قد لعب دورا كبيرا، تخطيطا وتنفيذا، في موضوع القضاء عليه. وما من شك في أن نجاح عبد الله في ذلك الدور قد زاد من مكانته لدى الإمام فيصل بن تركي بدرجة كبيرة، وقصّر المسافة الزمنية بينه وبين الحصول على إمارة جبل شمّر.

---

(١) من تلك الروايات رواية محمد بن سيف التي وردت في رسالته إلى ابن بشر، والتي ذكر فيها أن مشاري بن عبد الرحمن لجأ إلى «أذل مكان في القصر»، ثم انتهى به المطاف ـــ بعد أن أصيب بجروح ـــ إلى الالتجاء إلى بيت درجة. وحين رفض طلبه مقابلة فيصل حاول الخروج من مكان التجائه فقتل. انظر عنوان : ٦٢/٢.

الفصل الثالث

تعيين عبد الله بن رشيد أميراً لجبل شمّر والنتائج المباشرة لذلك

كان رسوخ مكانة عبد الله بن رشيد لدى الإمام فيصل بن تركي إثر القضية السابقة عاملا يكاد يكون كافيا لتوليته إمارة جبل شمّر، التي كان يطمح إليها بدون شك. ولذلك فإن بعض المصادر تشير إلى أن الإمام فيصلا عزل صالح بن عبد المحسن بن علي عن إمارة حائل وولّى مكانه عبد الله بن رشيد، معلّلة ذلك بأنه مكافأة لعبد الله على دوره في القضاء على مشاري بن عبد الرحمن[1]. لكن المتتبّع لهذا الموضوع في المصادر المختلفة تتضح له مسألتان جديرتان بالملاحظة. أولى هاتين المسألتين تتعلق بالتحديد الزمني لعزل صالح وتعيين عبد الله بدلا منه. والثانية تتصل بالظروف المحيطة بهذا الموضوع وكيفية تنفيذه.

لقد تمّ القضاء على مشاري بن عبد الرحمن قبل منتصف الشهر الثاني من سنة ١٢٥٠ هـ. وطبقا لما ذكره ابن بشر فإن الإمام فيصل بن تركي قد خرج من الرياض غازيا في آخر شهر شوال من تلك السنة. ودخلت السنة التي تليها وهو لا يزال في غزوته في منطقة الشعراء. وهناك عزل صالح بن

---

(١) والين، **قصة** : ١٨١ ؛ **هوبير** : ١٥٣؛ **بلجريف** : ١/١٥٢، موزل، **شمال نجد**: ٢٣٨، مقبل الذكير، مسودة تاريخ لم يقرر مؤلفه له عنوانا. وهي موجودة في مكتبة كلية الآداب ببغداد رقم ٥٦٩ : ٦٣/٦٣ وسيشار إليه، مستقبلا، باسم مؤلفه، مقبل الذكير، فقط، فؤاد حمزة، **قلب جزيرة العرب**: ٣٤٢، الزركلي، **شبه الجزيرة**:١/١١٤؛ فهد المارك في حاشيته على **نبذة**: ٦٧.

عبد المحسن عن إمارة الجبل وعيّن مكانه عبد الله بن علي بن رشيد[١]. وروايته هذه قابلة لأن يكون التعيين قبيل نهاية سنة ١٢٥٠ هـ، أو في بداية السنة التالية لها. أما المؤرخ مقبل الذكير فيقول: إن تعيين عبد الله بن رشيد في الإمارة كان سنة ١٢٥١ هـ.[٢] ويجعل الزركلي ذلك التعيين في آخر هذه السنة [٣].

ومن الواضح أن رواية ابن بشر، من بين الروايات السابقة، تعطي أقصر مدة بين القضاء على مشاري بن عبد الرحمن وبين تعيين عبد الله بن رشيد أميرا على جبل شمّر. ولو أخذ برواية هذا المؤرخ المعاصر لتلك الحادثة ــ وهي فيما يبدو أقرب إلى الصحة ــ فإن الدارس يلاحظ نقطة مهمة، وهي أن تعيين عبد الله في الإمارة المذكورة لم يحدث مباشرة بعد القضاء على مشاري، وإنما أتى بعد ذلك بثمانية شهور على الأقل. ومن هنا يتّضح أن دور عبدالله في قضية مشاري، وإن يكن قد رسّخ مكانته لدى الإمام وقرّبه من تولّي إمارة الجبل، لم يمنع ذلك الإمام من التريث في هذا الموضوع بعض الوقت.

والمتأمل في المصادر التاريخية يرى أن علاقة أمير الجبل، صالح ابن عبد المحسن، بحكومة الرياض لم تكن علاقة سيئة آنذاك. ولعلّ مما يوضح ذلك أن أهل تلك المنطقة قد اشتركوا مع الإمام فيصل في غزوته لوادي الدواسر سنة ١٢٥٠ هـ.[٤]. وربما كان ذلك الموقف من أهم عوامل تريّث الإمام فيصل. وربما كان من عوامل تريّثه، أيضا، أنه رأى ضرورة الاطمئنان على ولاء مختلف المناطق له، خلال تلك الشهور، قبل أن يجري

---

(١) **عنوان:** ٢/٨٣ ــ ٨٥.

(٢) **مقبل الذكير** : ٦٣.

(٣) **شبه الجزيرة** : ١/١١٤.

(٤) **عنوان:** ٢/٨٣. وليس هناك ما يدل على صحة رواية موزل (**شمال نجد:** ٢٣٨) من أن صالحا ساعد مشاري بن عبدالرحمن في موقفه.

تعديلات في إماراتها. ويبدو أن عبد الله بن رشيد أدرك أنه لا بد من أن يتحرك سياسيا ليضيف إلى عامل رسوخ مكانته لدى ذلك الإمام عوامل أخرى تقنعه بعزل صالح بن عبدالمحسن عن إمارة الجبل وتوليته مكانه. وإذا كانت ثقة الإمام بعبدالله موجودة فإنه كان من السهل على هذا الأخير أن ينجح فى تهيئة مثل تلك العوامل.

كان هناك أنصار لعبد الله بن رشيد في حائل، كما كان هناك خصوم لصالح بن عبد المحسن فيها. وكانت شعبية عبد الله في منطقة الجبل، بصفة عامة، لا بأس بها. ولا شك أن دوره في قضية مشاري زاد من رصيده هناك لتقدير المجتمع للأعمال المتّسمة بالمخاطرة والبطولة، خاصة إذا نجحت . ومن المحتمل أن الإمام فيصلا كان يسمع من بعض زائريه من أهل حائل، خلال ذلك العام، ثناءً عطراً على عبد الله . وكان أن التقى ذلك الثناء بما يكنّه له من إعجاب وتقدير. وكان من السهل على عبدالله بن رشيد، الموصوف بحصافة الرأي، أن يحثّ غير الموالين لخصمه صالح بن عبد المحسن على الشكوى من ذلك الأمير لدى الإمام فيصل. وبذلك تكتمل العوامل المناسبة لتعيينه في إمارة جبل شمّر بدلا من صالح بن عبد المحسن.

ومع أن التصّور السابق هو أقرب الاحتمالات لحقيقة ظروف حادثة عزل صالح وتعيين عبدالله فإن بعض المصادر تعطي تصورات مختلفة عن ذلك. فضاري الرشيد ــ مثلا ــ يروي قصة تلك الحادثة بصورة فيها ما هو محتمل الوقوع، وفيها ما حدوثه بعيد الاحتمال. فهو يذكر أن الإمام فيصلا بعث رسالة إلى صالح بن عبدالمحسن يخبره فيها أن جماعته يشكون منه، ويأمره أن يحضر معهم إليه. وهذا أمر محتمل الوقوع، خاصة إذا حملت كلمة جماعة، على أنهم المؤيدون لعبدالله بن رشيد. لكن هذا الراوي يضيف إلى ذلك قوله : وحين علم عبد الله وعبيد بذلك اتّجه عبيد فورا إلى فيصل ووصل إليه قبل وصول صالح بن عبد المحسن، وأوضح للإمام أن صالحا قسا على أسرتهما دون مبرر. وكانت نتيجة النقاش الذي دار بين عبيد

وصالح لدى الإمام ــ فيما بعد ــ أن اقتنع الأخير بصحة موقف عبد الله وأخيه عبيد[١].

وكلام ضاري عن الموضوع السابق يدل على أن عبد الله وعبيداً كانا لا يزالان منفيين مع أسرتهما خارج حائل. ومن الصعب التوفيق بين هذا القول وبين ما هو معروف من توثّق علاقة عبدالله بفيصل، خاصة بعد أن لعب ذلك الدور الكبير في قضية مشاري بن عبد الرحمن. والمرجّح أن عبد الله ظل مع الإمام فيصل بعد هذه القضية حتى عيّن أميرا على حائل. وهذا ما ينص عليه المؤرخ مقبل الذكير[٢].

ثم يواصل ضاري روايته عن الموضوع ذاته بشكل يظهر فيه عدم الدقّة فيقول: إنه نتيجة اقتناع الإمام فيصل بصحة موقف عبدالله وعبيد عزل صالح بن عبد المحسن عن إمارة حائل. وبعد أسبوع من إقامة وفد هذه البلدة مع الإمام المذكور أذن لهم بالعودة إلى بلادهم، وكتب معهم رسالة إلى أهل حائل قال فيها:

> «اذا ورد عليكم صالح وعبدالله فاختاروا أيّهم شئتم ويكون هو الأمير. أما أنا فعزلت صالح لأني أشوف انه عاجز. فإن ما شفتم أولاد علي لايقين للإمارة فيكونون مستقرين في

---

(١) **نبذة** : ٦٣ــ٦٦. ويرى الأستاذ فهد المارك (**نبذة** :٦٣ هامش١) أن هذه القصة حدثت زمن الإمام تركي. ويبدو أن كلامه أصح من رواية ضاري، الذي يخلط أحيانا بين الحوادث التاريخية. ومن دلائل ضعف روايته، هنا، أنه قال في البداية: إن الإمام فيصل بن تركي بعث إليه أن يحضر مع جماعته. بينما قال، فيما بعد، إن فيصلا سأل صالحا حين قدم إليه: ما أقدمك؟ وربما كان قدوم عبيد على الإمام تركي ــ كما ذكر المارك ــ أثناء وجود أخيه عبدالله في العراق، وأنه كان من نتيجته تخفيف ضغط الأمير صالح على أسرتهما. وكلام المارك لا يمنع احتمال تكرر الشكوى ضد صالح زمن الإمام فيصل، وأن الشكوى الأخيرة تمّت بتدبير عبدالله فعجلت بعزل صالح عن الإمارة.

(٢) **مقبل الذكير** : ٦٣.

بلادهم، ولا عليهم يد طائلة، إلا أن يحدثوا حدث (هكذا) في الدين أو في الحكم، وأمّا حاجات النفوس فلا»(١).

ولعلّ من دلائل ضعف رواية ضاري السابقة أنه قال في بدايتها: إن عبيداً ركب وحده إلى الإمام فيصل، بينما بقي عبد الله عند أسرتهما. ثم قال بعد ذلك: إن فيصلا قال في رسالته إلى أهل حائل: إذا ورد عليكم صالح وعبدالله وعبيد. ومن ناحية أخرى، فإن هذا الراوي قد ذكر أن زعماء أهل حائل كانوا عند الإمام، وأنه اجتمع بخمسة منهم واستشارهم في الموقف. فلماذا يكتب إلى أهل حائل ليختاروا؟ والمعقول أن يقرر الإمام نفسه من هو الأمير، خاصة أنه يعرف عبدالله تمام المعرفة، وأن لديه من أهل حائل من كانوا مؤهلين للاستشارة في هذا الموضوع إن احتاج إلى استشارة.

أما هوبير فإنه يقول عن المسألة السابقة: إن الإمام فيصل بن تركي سأل عبدالله بن رشيد أن ينتظر حتى قدوم صالح بن عبد المحسن إليه. وبعد عام من قضية مشاري قدم الأمير صالح إلى فيصل حاملا معه الزكاة والهدايا، كما جرت العادة. ولم يشأ الإمام أن يغضبه، فأبقاه في وظيفته. لكنه أعطى عبدالله سلطة مساوية لسلطته في الجبل. فذهب عبد الله وصالح معا إلى حائل(٢).

---

(١) **نبذة**: ٦٧ — ٦٨. وقد علّق فهد المارك على كلام ضاري، هنا، بأن الراوي أصبح يروي الأحداث على غير حقيقتها نتيجة مرضه، وأن روايته هذه كلها خطأ في خطأ. انظر **نبذة**: ٦٧ هامش١. ويلاحظ أن بيلي وايندر قد اعتمد على رواية ضاري دون مناقشة. انظر كتابه:

Saudi Arabia in the Nineteenth Century, New York, 1965;/01-3.

وسيشار إلى هذا المصدر، مستقبلا، باسم مؤلفه وايندر فقط.

(٢) **هوبير**: ١٥٢ —١٥٤. هذا وقد نقل مايكل بارون عن سليمان الدخيل قوله: إن فيصلا عين عبدالله أميرا على قوافل الحجاج المارة بالجبل. انظر رسالته للدكتوراه:

The Rashidi Amirate, Unpublished Doctoral desertation. Univesity of Michigan, 1978-9:3/29.

وبالرجوع إلى مصدره اتضح أن سليمان ادّعى أن ذلك المنصب قد أعطي لعبدالله. لكن كلامه يدّل على أنه أعطي إياه قبل تولّي فيصل الحكم. انظر **القول السديد... ملحق نبذة**: ١٤٨.

وما ذكره هوبير في بداية روايته أمر محتمل الوقوع، لكن ما ذكره من إعطاء الإمام فيصل لعبد الله بن رشيد سلطة مساوية لسلطة صالح بن عبد المحسن في الجبل أمر بعيد الاحتمال. ذلك أنه من المؤكد أن الإمام المذكور كان يدرك أن وضعا كهذا الوضع سيقود، حتماً، إلى صراع بين صالح وعبدالله.

وأمّا والين، الذي زار بلدة حائل في عهد الأمير عبد الله بن رشيد نفسه، فيذكر أن الإمام فيصل بن تركي، بعد قضية مشاري، خلع صالح ابن عبدالمحسن عن إمارة تلك البلدة وعيّن عبدالله مكانه. ولما لم يكن لدى ذلك الإمام قوة كافية لتنفيذ هذا التعيين فإن عبد الله ذهب إلى بلاده متّكلا على مؤهلاته الشخصية. وقد ظل فترة، بعد وصوله إلى منطقة الجبل، يختفي نهاراً في أجأ ويتسلّل ليلاً إلى حائل وقفار، حيث كان يجتمع بأصدقائه ومؤيديه الذين كانوا يحثّون الناس على مساندته. وحين اجتمع حوله من كان يعتقد أنهم كافون لقهر خصمه هاجمه بهم وانتصر عليه(١) .

ولعله من المحتمل أن سلطة حكومة الإمام فيصل لم تكن قوية في المناطق النائية عن عاصمتها آنذاك. لكنه من غير المرجّح أن ذلك الأمر قد وصل إلى درجة أن تلك الحكومة لم يكن لديها من القوة ما يمكّنها من عزل أمير وتعيين آخر بدلا منه. وغزو الإمام فيصل لوادي الدواسر وعالية نجد في السنة الأولى من حكمه من أدلة ذلك. ومن ناحية أخرى ، فإن ما ذكره والين من اختفاء عبدالله في أجأ.. الخ.. يبدو أنه مزج لحوادث مرحلتين من مراحل تاريخ عبد الله : إحداهما حين كان مختفيا في أجأ عقب نفي صالح ابن عبدالمحسن له، والثانية نشاطه ضد عيسى بن علي، الذي ستأتي تفاصيل ذكره بعد قليل.

ويقول بلجريف : إن فيصل بن تركي عيّن عبد الله بن رشيد حاكما مطلقا في منطقة شمّر، مع حق توريث الإمارة لمن يشاء، كما أمدّه بجيش

---

(١) والين، **قصة** : ١٨١

لإنشائها[١] . وهو في النقطة الأخيرة من كلامه ينفرد عن أي مصدر آخر. وما أورده بشأنها لا تؤيده المصادر المقرّبة من مسرح الحوادث آنذاك.

وإذا تجاوز الباحث المصادر السابقة إلى ابن بشر، المؤرخ النجدي المعاصر لحادثة عزل صالح بن عبدالمحسن عن إمارة الجبل وتعيين عبد الله بن رشيد مكانه، يجده يذكرها بصورة مختصرة ومختلفة عمّا في تلك المصادر. فهو يقول:

«وفي هذه الغزوة ـــ غزوة الإمام فيصل لمنطقة الشعراء ـــ وهو في ذلك المنزل عزل صالح بن عبد المحسن بن علي من إمارة الجبل، واستعمل فيه أميراً عبدالله بن علي بن رشيد، وبعث معه قاضيا الشيخ العالم عبد العزيز بن عثمان بن عبد الجبار ، وأقام عنده نحواً من ثلاثة أشهر حتى انقضى الموسم. ثم أذن له ورجع إلى بلده[٢] ».

وواضح أن تقرير ابن بشر السابق لا يعطي أسباب عزل صالح وتعيين عبدالله، لكنه يفيد بصورة جليّة أن عبد الله بن رشيد كان مع الإمام في منطقة الشعراء، وأنه ذهب منها إلى الجبل وهو الأمير المعيّن عليه من قِبَل ذلك الإمام. وإرسال القاضي عبد العزيز معه يزيد من تأكيد هذه المسألة.

وإذا أخذت الأسباب المذكورة سابقا[٣] عن هذه الحادثة بعين الاعتبار فإن ما ذكره ابن بشر عن تاريخ وقوعها وكيفية تنفيذه أقرب الروايات ـــ فيما يبدو ـــ إلى الصحة. وعلى هذا فإن حجر الأساس لإمارة آل رشيد وضع في آخر سنة ١٢٥٠ هـ، أو في بداية السنة التالية لها[٤] . وكان ذلك بتعيين عبدالله بن علي بن رشيد أميراً على جبل شمّر من قِبَل الإمام فيصل بن تركي آل سعود.

(١) **بلجريف** : ١٢٣/١.
(٢) **عنوان**: ٨٤/٢.
(٣) انظر صفحة ٤٣ من هذه الدراسة.
(٤) ومن الواضح خطأ هوبير :(١٥٤) حين قال إن ذلك قد تمّ سنة ١٢٤٦ هـ.

وكما اختلفت المصادر في كيفية عزل صالح بن عبدالمحسن عن إمارة جبل شمّر وتعيين عبد الله بن رشيد مكانه فإنها اختلفت، أيضا، في رواياتها عمّا حدث من أمور هناك منذ وصول عبد الله إلى حائل حتى استقرار الإمارة له. فالرحّالة والين يذكر أنه نتيجة لانتصار عبدالله على خصمه صالح وتحطيمه لقوته هرب هذا الأخير إلى المدينة المنوّرة، بحثا عن مساعدة واليها التركي. غير أن عبيد بن رشيد لحق به وبإخوته الثلاثة عند قصر السليمي وقتلهم. ولم ينج إلا واحد، اسمه عيسى، واصل سيره إلى المدينة. وهناك استقبله القائد التركي ووعده بالمساعدة. لكن عبد الله بن رشيد بعث أخاه عبيداً لمفاوضة ذلك القائد. ولأنه عرض ثمنا أكثر مما كان في مقدور عيسى أن يعرض — قيل إنه وعده بألفي بعير مع مبلغ من المال وهدايا أخرى — فإن القائد التركي أقرّ عبد الله على إمارة الجبل. لكنه أبقى عيسى لديه وسيلة لإجبار عبدالله على الوفاء بوعده. ومنذ ذلك الوقت ظل عبدالله بن رشيد أميراً غير منازع حتى وفاته(١).

أما هوبير فإنه ذكر تفصيلات عن تلك المرحلة لم ترد في كتابات غيره من الأجانب. فبعد أن أشار إلى إبقاء الإمام فيصل لصالح في وظيفته مع إعطاء عبدالله سلطة مساوية لسلطته قال ما ملخّصه: إن صالحا وعبدالله عادا من فيصل ووصلا إلى حائل في يوم واحد. لكنهما لم يبقيا متّفقين؛ لأن عبدالله لم يكن ليسمح بمشاركة صالح له في السلطة. وظلت المشكلة بينهما دون حل. وتدهورت الأمور هناك حتى غادر صالح وأسرته حائل إلى بريدة.

وبعد فترة قصيرة وردت الأخبار بأن خالد بن سعود قد أرسل من مصر للاستيلاء على نجد من جديد، وأنه في طريقه من المدينة المنوّرة إلى الجبل مع مائتي جندي. وحين قرب من حائل تركها عبدالله وأخوه عبيد إلى جُبَّة. ولذلك استولى خالد على قاعدة الجبل دون مقاومة. وبعد إقامته فيها ثلاثة شهور عيّن عيسى بن عبيدالله أميراً عليها.

---

(١) والين، **قصة** : ١٨١.

وحينما غادر المنطقة ترك عبدالله وعبيد جبّة واتجها إلى قفار حيث يوجد أصدقاؤهما من الخشميات. وبدأت مناوشات بين قفار وحائل. وفي أحد الأيام قدم أحد سكّان الجبل من المدينة المنوّرة إلى حائل وروى أن خمسين ومائة جندي قد تركوا المدينة إلى نجد لتقوية خالد بن سعود، وأنهم على بعد أربعة أو خمسة أيام من الجبل. وحين سمع عبد الله بذلك تسلّل إلى هذا الرجل وسأله عن مهمة أولئك الجنود، فأخبره أنهم يبحثون عنه، لا عن خالد[١]، ونصحه أن يقابلهم، ويحاول كسبهم إن كان يريد حكم الجبل. فعاد عبدالله إلى أخيه عبيد في قفار. ثم ذهب مع رجلين من أنصاره لمقابلة الجنود المذكورين. وحين قابلهم في المستجدّة نجح في الاتفاق معهم. وقد هاجم بهم كلا من حرب وهتيم، فغنموا كثيراً من النقود والإبل والخيل.

وفي أثناء ذلك انطلق عبيد وأتباعه إلى حائل. وبعد مناوشات ناجحة مع خصومه علم أن عيسى قد ترك قصر الحكم وغادر البلاد.

وحين وصل عبدالله إلى حائل وجد أن أخاه قد استولى عليها بالفعل. أمّا عيسى فإنه قد اتّجه إلى القصيم، حيث قابل خالد بن سعود وأخبره أن جنودا قد توجهوا من المدينة لتقويته. فمضى خالد وعيسى لمقابلتهم. وحين علم عبدالله وعبيد بذلك انطلق عبيد مع بعض الرجال نحو الجنوب. وعلى مقربة من جبل سلمى أخبر أن خالداً وعيسى سيناماان في السليمي. وهناك هاجمهم وقضى عليهم إلا عيسى فإنه هرب بمساعدة صديقه عبدالرحمن الجبر الذي كان مع عبيد[٢]. وهكذا استقر عبد الله في إمارة الجبل[٣].

ورواية ضاري الرشيد عن الفترة ذاتها تشبه في كثير من تفصيلاتها رواية هوبير السابقة. وذلك يوحي بأن ما اتفقا عليه كان هو الشائع عند سكان تلك المنطقة، على الأقل. فهو يقول: إن صالح بن عبد المحسن بعد وصوله

---

(١) لو كان اسم عيسى هنا بدلًا من خالد لكان أقرب إلى الاحتمال.
(٢) من المؤكد أن خالداً لم يكن معهم.
(٣) **هوبير** : ١٥٤ ــ ١٥٧.

إلى الجبل مزّق رسالة فيصل إلى أهل حائل، وأبى أن يتقيّد بما فيها. فظلت المسألة معلّقة. أمّا عبدالله وعبيد فلم يريدا أن يعودا إلى أهلهما، وظلا خارج البلدة حتى قدم رجل، اسمه العريفي، من المدينة وقال لعبدالله: إن فيها باشا يريد الخروج إلى نجد، وإنه يبحث عن رجل كفؤ ليوليه إمارة الجبل، وإني وصفتكم له. وأشار على عبد الله أن يذهب لمقابلة ذلك الباشا، فعمل بمشورته. أمّا عبيد فظل قرب حائل يراقب تحركات صالح بن عبدالمحسن. وحين علم صالح بذهاب عبدالله إلى المدينة خرج من حائل متوجها إلى العراق، بحثا عن مساعدة. لكن بعد يوم من خروجه قابله أناس من شمّر ونصحوه بالذهاب إلى المدينة. فاستساغ صالح رأيهم وغيّر اتجاهه. غير أن أخباره وصلت إلى عبيد فقرر ملاحقته والقضاء عليه. وقد تمكّن من قتله وقتل أحد أقاربه حين باغته ليلا في إحدى قرى الجبل. وهرب بقية من كانوا معه، ومنهم عيسى بن عبيدالله.

وبعد ذلك أسرع عبيد إلى حائل، حيث وجد أقارب آل علي وبعض مؤيديهم قد تحصّنوا في قصرهم. وقد تمكن في نهاية الأمر من الانتصار عليهم.

أماّ عبدالله فقد اتفق مع الباشا في المدينة، وخرج منها مع خمسين ومائة جندي. وفي الطريق أغاروا على فريق من عنزة، وأخذوا منهم أربعمائة بعير، كما أجبروا فريقا آخر من هذه القبيلة على أن يسلّموهم ألف بعير. وحين علم عبدالله بما قام به أخوه عبيد في حائل أرسل هذه الإبل مع الجنود إلى المدينة وأسرع إلى حائل، حيث أطلق سراح عشرين ومائة رجل من أهلها كان عبيد قد أسرهم بعد استيلائه عليها.

وحين قدم خورشيد إلى نجد أرسل عيسى مع خمسمائة نفر للاستيلاء على الجبل. وحين اقتربوا من حائل تركها عبدالله مع أسرته، ودخلها عيسى دون مقاومة. لكن عيسى لقي بعد ذلك مقاومة من بعض سكان قفار. وقد تسلّل إلى هؤلاء المقاومين عبيد، وقام بمهاجمة الجنود التابعين لعيسى، وقتل

منهم عدة رجال، وعاد بقيتهم إلى حائل. وهناك بدأ الأهالي باغتيالهم. وحين أدرك هؤلاء الموقف الخطر تركوا المنطقة، وانسحب معهم عيسى. وعاد عبدالله إلى حائل حيث استتب له الأمر بعد ذلك[١].

أمّا موزل، الذي كان ابن بشر أحد مصادره، فإن روايته لما حدث تختلف كثيراً عن الروايتين السابقتين. ذلك أنه يقول: بعد فترة قصيرة من وصول عبدالله إلى حائل، أميراً من قِبَل فيصل، اضطر صالح بن عبدالمحسن أن يتركها مع أسرته إلى بريدة. وكان الجيش المصري يحتل، انذاك، هذه المدينة. لكنه اتّبع في الطريق وقتل.

وفي سنة ١٨٣٧م (١٢٥٣ هـ) كانت حائل مرة أخرى في أيدي آل علي بمساعدة الجيش التركي، الذي قدم إلى نجد لإحلال خالد بن سعود محلّ فيصل بن تركي. ولأن عبدالله كان من أعوان فيصل فإنه قد اضطر إلى مغادرة حائل مع أخيه وأسرته، وقد التجأ إلى جبّة عند ابن رخيص، تاركاً بذلك عيسى بن علي سيّداً على حائل. لكن الجيش التركي لم يبق في هذه المدينة إلا وقتاً قصيراً، وانسحب إلى القصيم. وبمجرد انسحابه هاجم عبدالله وأتباعه قفار التابعة لأسرة آل علي الحاكمة، وطرد مؤيدي تلك الأسرة من البلدة، واتّخذها مركزا له.

وحين أرسلت تعزيزات تركية جديدة من المدينة عبر القصيم ضد عبدالله خفّ هذا لمقابلتهم في المستجدّة، وأهدى إلى خورشيد هدايا ثمينة، كما وعده بالاعتراف بالسيادة التركية إن ساعده الأتراك ضد خصمه عيسى بن

(١) **نبذة** : ٦٨—٧٧. وقد اعتمد بيلي وايندر على رواية ضاري، ولم يكن دقيقا في نقله عنه. إذ قال — مثلا — إن عبدالله أطلق سراح ١٢٠ رجل كان صالح بن عبدالمحسن قد اعتقلهم، بينما تقول رواية ضاري: إن عبيداً هو الذي أسر هؤلاء. انظر **وايندر** : ٣—١٠٥، وقارنه برواية ضاري المذكورة أعلاه ومن الثابت أن الذي أرسل عيسى للاستيلاء على الجبل هو إسماعيل أغا وخالد بن سعود وليس خورشيد باشا.

علي[١]. وقد كسب عبدالله بوعوده وهداياه خورشيد باشا إلى جانبه، ودخل حائل بعد ذلك بقليل منتصرا على خصومه. أمّا عيسى فقد اتجه إلى المدينة المنوّرة، لكن عبيد بن رشيد أدركه في قرية السليمي وقتله[٢]. وبهذه الطريقة نجحت أسرة ابن رشيد أخيرا في الهيمنة على حكم حائل، وقضت نهائيا على أسرة آل علي. وكان ذلك في ربيع سنة ١٨٣٨م[٣] (١٢٥٤هـ).

ومهما وجد في المصادر السابقة من اختلافات أو لوحظ فيها من ثغرات وأخطاء في بعض المسائل فإنها تلقي الكثير من الأضواء على الأحداث التي تعرضت لها[٤]. والنتيجة التي يطمئن إليها الباحث من خلال دراسة هذه المصادر، ومقارنتها بمصادر أخرى أكثر التصاقا بتاريخ نجد ـــ كابن بشر ـــ أن مسار الحوادث المتعلّقة بجبل شمّر آنذاك كان على النحو الآتي:

حينما عيّن الإمام فيصل بن تركي عبدالله بن رشيد في إمارة الجبل بدلاً من صالح بن عبدالمحسن احتلّ عبدالله منصبه دون مقاومة عسكرية من صالح[٥]. لكنه من المرجّح جداً أن صالحاً لم يرض بالأمر الواقع. ذلك أنه لم يكن متوقعا أن يحدث أي نوع من الالتقاء بين الأمير المعزول وبين الأمير الجديد، خاصة أن تاريخ العلاقات بينهما كان مشحونا بالتوتّر والعداء قبل هذه القضية. ومن المحتمل أن الأمير المنتصر قام ببعض الأعمال المضايقة للأمير المنتصر عليه، كردّ فعل لما حدث بينهما في الماضي. ومن المحتمل، أيضا، أن شعور صالح بالغبن نتيجة فقده إمارة كانت أسرته تتوارثها منذ زمن

---

(١) يلاحظ أن موزل يتكلم عن الأتراك. والواقع أن خورشيد كان مرسلا من قبل حاكم مصر، الذي لم يكن على علاقة طيبة مع الأتراك العثمانيين، آنذاك.

(٢) توفي عيسى وفاة طبيعية في الأحساء، كما سيأتي.

(٣) موزل، **شمال نجد**: ١٣٨.

(٤) أكثر هذه الثغرات والأخطاء لم تناقش عند عرضها اكتفاء برسم الصورة المحتملة بعد ذلك.

(٥) غالباً ما قبل زعماء البلدان عزلهم عن الإمارة ـــ مرحليّا على الأقل ـــ لكنهم يثورون إذا سنحت لهم الفرصة، كما حدث بالنسبة لآل سليم والسحيمي في عنيزة. انظر **عنوان**: ١٥٢/٢ و١٥٧ـــ١٥٨.

طويل قد جعله يقوم بما يثير من كسب تلك الإمارة. وسواء كان البادىء بالاستثارة والتحدّي هذا أو ذاك فإن الموقف بينهما كان متدهورا على أية حال. وقد انفجر بعد فترة قصيرة جداً من وصول عبدالله بن رشيد إلى حائل. ولعل أقرب تصوير للواقع آنذاك ما رواه ابن بشر حين قال:

«لمّا وصل عبدالله بن رشيد إلى جبل شمّر أميراً، وأقام فيه نحو شهر كثر القال والقيل بينه وبين صالح بن علي وأعوانه. فحصل بينهم مجادلة في المسجد يوم الجمعة، وشهرت السيوف، وأرادوا الفتك بهم (١) ، وتصادموا بينهم. فقام الناس فحجزوهم في المسجد. فخرج صالح وأتباعه، وقصدوا قصرهم ودخلوه فحشد عليهم عبدالله بأعوانه وأهل بلدانه، فحصرهم فيه. ثم أخرجهم بالأمان من القصر، وأخرجهم من بلدان الجبل(٢) ».

ولقد كان عبدالله بن رشيد ثاقب الرأي في تحركاته، كما أثبتت الحوادث السابقة لهذه القضية والتالية لها. ومن هنا، فقد بادر إلى كتابة رسالة إلى الإمام فيصل محاولاً أن يشرح الظروف التي أحاطت به لكي يأمن جانب ذلك الإمام. وقد ادّعى في هذه الرسالة ـــ كما كان متوقعا ـــ أن آل علي هم الذين بدأوا بالشر وأنهم كانوا ينوون قتله وقتل أنصاره غدراً. ويبدو أن ثقة الإمام بصديقه عبدالله جعلته يصدّقه فيما ادّعاه(٣) .

وحينما فقد صالح بن عبد المحسن الجولة مع خصومه في ميدانها المحلّي، واضطر إلى الانسحاب، بات متوقعا أن يفكر في وسيلة أخرى قد تقوده إلى

---

(١) ليس من الواضح المقصود بالضمير في «أرادوا». لكن مقبل الذكير أشار إلى أن عبدالله كان مصمّما على القضاء على آل علي، فكان يتحدّاهم ليجد فرصة تخدم غرضه . وما زال بهم حتى حدث شجار بين أتباع الطرفين في المسجد. انظر تاريخه :/٦٣.

(٢) **عنوان:** ٨٥/٢

(٣) المصدر السابق ، الصفحة ذاتها.

العودة إلى الإمارة من جديد. وما من شك أنه كان يدرك عدم انسجام العلاقات السياسية بين آل سعود، أصدقاء عبدالله بن رشيد، وبين الدولة العثمانية. ومن هنا، فإنه من المرجح أن تفكيره اتّجه أول ما اتّجه إلى العراق التابع للدولة العثمانية. وربما كان يفكر أن يجد في ذلك القطر ــ بجانب المسؤولين الرسميين فيه ــ مساعدة من بعض قبيلة شمّر، الذين لم تكن تربطهم علاقة مودّة بآل سعود أيضاً. ومع ذلك فإن ما ذكره ضاري من تغيير اتجاهه نحو المدينة بمشورة بعض اصدقائه أمر محتمل الوقوع. ولقد كان مرجّحا أن يلقى صالح بن عبدالمحسن، المستاء من إجراء الإمام فيصل، تأييداً في المدينة المنوّرة من ممثلي حاكم مصر، الذي كان على وشك تسيير حملة قوية لانتزاع السيادة في نجد من ذلك الإمام. وعلى أية حال، فإن تحركات صالح بن عبد المحسن كانت مرصودة من قِبَل خصومه الذين تصرفوا بسرعة ليحولوا دون وصوله إلى هدفه. ويبدو أنهم رأوا ان الوسيلة الناجحة الوحيدة لتفادي وقوع الخطر المحتمل هي القضاء على صالح ذاته قضاء نهائيا. وهكذا تعقّبه عبيد بن رشيد وفاجأه في قرية السليمي وقتله، كما قتل بعض من كانوا معه. لكن رجلًا من أسرة آل علي، اسمه عيسى، تمكّن من الهروب من هذه الواقعة (١).

---

(١) يلاحظ أن ابن بشر (**عنوان:٢/٨٥**) ذكر أن قتل صالح بن عبدالمحسن كان في القصيم. ويبدو أن كلا من مقبل الذكير : (٦٣) وعبدالله البسام (**تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق**، مخطوط، ورقة :١٣١، قد اعتمد على ابن بشر في هذه القضية. ولم يذكر هؤلاء الثلاثة مكان الحادثة من منطقة القصيم، كما لم يذكروا من قام بها. وقد ذكر قتل صالح في القصيم دون تحديد المكان **بلجريف** (١/١٢٦)، لكنه ذكر أن عبيد بن رشيد هو الذي قام به.

ورواية ضاري (**نبذة** :٧٠ــ٧١) تدلّ على أن الحادثة كانت في إحدى قرى جبل شمّر. ولعل المقصود بها قرية السليمي فتكون روايته بذلك موافقة لما رواه كل من والين (**قصة** :١٨١) وهوبير (١٥٤ــ١٥٧)من أن مقتل آل علي كان في هذه القرية. وعدم نص المصادر النجدية الثلاثة الأولى على مكان محدّد من القصيم للحادثة، وعلى من قام بها، يرجّح رواية ضاري المؤيدة بروايتي والين وهوبير.

ولا شك أن التخلّص من صالح بن عبدالمحسن قد بعث كثيراً من الطمأنينة في نفس الأمير عبدالله بن رشيد. لكن سرعان ما طرأ على هذه الطمأنينة ما كدّرها. ذلك أن سنة ١٢٥١هـ ذاتها قد حملت معها نذير خطر جديد للإمام فيصل بن تركي ومن ورائه الأمير عبدالله. فقد بعث حاكم مصر، محمد علي، إلى الإمام يطلب منه مطالب وخراجا. وقد فسّر ابن بشر هذا الطلب بأنه محاولة تبرير لما كان سيقوم به من غزو لدولة ذلك الإمام(١) . وفي السنة التالية وقع ذلك الخطر. فقد ظهرت حملة مصرية، بقيادة إسماعيل أغا وخالد بن سعود، صوب نجد حتى وصلت إلى الحناكية. ومن الواضح أن من عوامل خطر هذه الحملة أنها كانت تتحرك، اسمياً، لصالح خالد بن سعود، أخي عبدالله آخر حكّام الدولة السعودية الأولى. وذلك قد يجعل بعض أهل نجد لا يتحمّسون في مقاومتها. ولقد استشار الإمام فيصل زعماء بلاده حول ما يجب اتخاذه من إجراءات. فاستساغ من بين آرائهم رأي الأمير عبدالله بن رشيد، الذي أشار عليه بتجهيز أتباعه والنزول بهم في القصيم. لكن بعض الإجراءات العسكرية التي قام بها الإمام فيصل في هذه المنطقة لم تكن موفقة. فكانت النتيجة أن اضطر إلى الانسحاب منها إلى الرياض. وسقطت منطقة القصيم في يد خالد بن سعود ومن معه قبيل نهاية سنة ١٢٥٢هـ. ومن سوء حظ الإمام فيصل أنه وجد بعض أهالي عاصمته ذاتها غير مستعدين للوقوف معه، فتركها إلى الخرج، ثم إلى الأحساء.

أمّا خالد بن سعود فبقي فترة قصيرة في عنيزة، ثم توجه إلى الرياض ودخلها في اليوم السابع من شهر صفر سنة ١٢٥٣هـ. ولكن خالداً ومن معه تكبدوا هزيمة ساحقة في جنوب نجد في منتصف ربيع الثاني فعادوا إلى الرياض. ونتيجة لذلك قدم فيصل بن تركي من الأحساء وأخذ يهاجم خصومه من جديد حتى ضيّق عليهم الحصار. وكانت قد قدمت إمدادات جديدة من

(١) عنوان : ٢/٨٢.

مصر بقيادة خورشيد باشا لنجدة خالد بن سعود ومن كانوا معه. وقد بعث هذا القائد مندوباً إلى الإمام فيصل يعده ويمنّيه. وكانت نتيجة وصول المندوب في منتصف شوال أن رفع فيصل حصاره للرياض، وانسحب إلى الجنوب قليلا. ثم بعث أخاه إلى خورشيد، وهو لا يزال في المدينة، بهدايا ثمينة. ورافق جلوي بن تركي خورشيد في مسيرته حتى القصيم. وقد مكث خورشيد في عنيزة من ربيع الأول سنة ١٢٥٤هـ حتى نهاية رجب من هذه السنة، ثم اتجه إلى الرياض. ومن هناك توجه مع خالد بن سعود لمحاربة فيصل ابن تركي في الدلم. وكانت نتيجة المعارك الطاحنة في تلك الجهة استسلام فيصل لخورشيد في شهر رمضان من سنة ١٢٥٤هـ، ثم بعث الإمام السعودي إلى مصر (١).

وإذا كان ذلك ما حدث بالنسبة للإمام فيصل فإنه لابد من العودة إلى الوراء قليلا لإيضاح ما حدث لصديقه وأميره على الجبل، عبد الله بن رشيد، الذي هو مدار البحث في الدراسة الحاضرة.

سبق أن أشير إلى أن عيسى بن علي قد نجا من مباغتة عبيد بن رشيد لأسرته في السليمي. ومن المحتمل أنه واصل سيره حتى المدينة المنوّرة. ومن المحتمل، أيضاً، أنه غيّر اتجاهه، خوفا من تعقّب عبيد له، وقصد منطقة القصيم. وعلى أية حال، فإن عيسى بن علي رحّب، كما كان متوقعا، بحملة إسماعيل أغا وخالد بن سعود الموجهة ضد الإمام فيصل، أملًا في الحصول على كسب شخصي له في منطقة الجبل على حساب عبدالله بن رشيد صديق ذلك الإمام. وحينما كسب قائدا هذه الحملة منطقة القصيم أدركا أن من مصلحتهما ومصلحة عيسى الاستيلاء على جبل شمّر. ومن هنا أرسلا مع عيسى فرقة من الجيش لتنفيذ هذه المهمة. وكانت تلك الفرقة مكونة من أربعمائة فارس من رجال الحملة بقيادة إبراهيم المعاون، وأهل مائة بعير بزعامة

(١) انظر تفاصيل هذه الحوادث في **عنوان** : ٢/٨٦ــ١٠٧ . وقد كان من الضروري إعطاء نبذة مختصرة عنها لكي تتضح، إلى حدّ ما، الظروف التي كانت محيطة بإمارة جبل شمّر آنذاك.

أمير عنيزة، يحيى بن سليمان[١] . ولأن عبدالله بن رشيد كان مشهورا بالذكاء وحسن التخطيط فإنه كان في نيّة قادة الحملة مفاجأته، والقبض عليه ليأمنوا تحركاته. ومن حسن حظه أنه أنذر بمسير تلك الفرقة إليه في الوقت المناسب[٢] . وكان بإمكانه أن يهرب من حائل مع أسرته وبعض مؤيديه قبل وصول الفرقة إلى هذه البلدة. وقد ذهب بعد مغادرته بلدته إلى جبّة حيث التجأ عند ابن رخيص. ومن المرجّح أن حركته هذه كانت باتفاق مع كثير من زعماء حائل. ومن هنا، فإن الفرقة دخلت هذه البلدة دون مقاومة. وأصبح عيسى أميرا هناك، وذلك في شهر محرم سنة ١٢٥٣هـ[٣] .

وكان عبدالله بن رشيد يدرك تمام الإدراك أن الأمور في منطقة الجبل لن تستقيم طويلا لخصمه عيسى بن علي. وهو إن تألّم قليلا لخروجه من بلدته فإنه كان واثقا في المستقبل. وقد أعرب عن هذه الثقة بصورة تحدّ للأمير الجديد، وإنذار له بأنه وراءه لا محالة. وقد ورد كل من ذلك التألّم والتحدّي في قصيدته التي قالها في تلك المناسبة ومطلعها :

قل هَيْه يالّلي لي من الناس وِدَّادْ

ما ترحمون الحال يا عِزْوتــي ليـــه[٤]

---

(١) كان سليمان يلقّب بسُلَيْم. وقد أصبح اسم أسرته فيما بعد آل سليم. وهو المستعمل في هذه الدراسة بعد الآن.

(٢) لم ينص ابن بشر على اسم من أنذر عبدالله (**عنوان** :٩٢/٢). لكن مقبل الذكير يقول: إن يحيى بن سليم هو الذي أنذره. انظر تاريخه ٦٥. ويبدو أن ذلك كان صحيحا . فقد أشار ابن بشر في حديثه عن معركة بقعاء سنة ١٢٥٧ هـ أن أحد رجال شمّر أعطى يحيى فرسا ليهرب عليها. فقال له يحيى: «دلّني على عبدالله وأنت صاحب الإحسان. وكان بينه وبين عبدالله صحبة قديمة فأوصله إيّاه، وجلس عنده وقال: لا بأس عليك». انظر **عنوان**: ١١٨/٢ . وإنذار يحيى لعبدالله ـــ عند قبول رواية الذكير ـــ من أكبر الدلائل على تلك الصحبة.

(٣) **عنوان** : ٦٢/٢.

(٤) قل هيه : تعبير كثيراً ما يأتي في بداية القصيدة لجلب انتباه السامع. عزوتي: من التعبيرات المشهورة لدى شمّر، ويقصد به أحبائي الأقرباء الذين أعتز بهم.

ومنها :

جُبّه سقاه من اول الوسم رعّاد
ما حدّرت خشم ام سمنان تسقيه[١]
الّلي بها للمنهزم زبن ميعاد
من لاذ به كنّ الحرم لايذٍ فيه
ابن رخيص نازل هاك الأجراد
قال انزلوا وانتم هَلْ الدار ياهيه

ومنها :

عيسى يقول الحرب للمال نفّاد
والمال لمن هبت نسانيس ذاريه
عيسى يقول الحرب ما به لنا ازواد
انشد مسوّي السيف قل ليه حانيه؟
لا عاد ما نرويه من دم الأضداد
ودّوه يمّ العرفجيه تروّيه[٢]
والله لو اني من ورا جسر بغداد
اني لكم مثل العمل عند راعيه[٣]

ومن الواضح أنه منذ خروج عبدالله بن رشيد من حائل ودخول عيسى بن علي إليها وهناك عوامل معيّنة تتصارع في مصلحة هذا أو ذاك. لقد أتى

(١) الموسم : فصل من فصول السنة يبدأ فيه نزول المطر في نجد. وإذا نزل المطر خلاله فإن السنة في الغالب تكون سنة خير وربيع. أم سمنان : لعلّها أم سلمان، وهي ــ على حد تعبير الشيخ حمد الجاسر ــ جبيلات تحف ببلدة جُبّة من الغرب. انظر **المعجم الجغرافي**: ١٢٨/١.

(٢) العرفجية : لولوه العبدالرحمن العرفج من أسرة أمراء بريدة قديما. قتل أحد أقاربها، رشيد بن سليمان الحجيلاني، ابنها عبدالله وتولّى إمارة البلدة بعد مقتله. فعملت حيلة وقتلت بيدها رشيد بن سليمان ثأرا لمقتل ابنها. وقد أصبح عملها مضرب الأمثال في الشجاعة. انظر عن تفاصيل قصتها محمد العبودي، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: بلاد القصيم**، دار اليمامة، ١٣٩٩ هـ : ٥٢٣/٢ــ٥٢٦.

(٣) **مقبل الذكير** : ٦٥.

عيسى إلى الإمارة بواسطة قوة أجنبية. وفي ذلك ما فيه من اختلاف مع مشاعر بعض السكان. وبالإضافة إلى ذلك فإتيانه بهذه الطريقة ربما رؤي علامة ضعف وعدم ثقة بشعبيته لدى قومه. ومع ذلك فقد كان هناك من يتعاطف مع أسرة آل علي، ويرى أنها قد ظلمت بسلبها إمارة كانت تتوارثها أجيالا متعاقبة، إضافة إلى الطريقة التي كانت قد تمّت بها نهاية رئيسها صالح بن عبد المحسن. وإذا كان هؤلاء لا يرحّبون بالأجانب، بدون شك، فإن مساعدة أولئك القوم كانت الوسيلة الوحيدة لرفع الظلم المشار إليه. لكن ما قام به إبراهيم المعاون من أخذ أموال من بعض أهل حائل كان في غير مصلحة عيسى بن علي، الذي كان على الأرجح غير قادر على منع إبراهيم. ولابد أن الإجراء الذي قام به هذا الأخير قد أثار المتضررين به، كما أثار من يتعاطفون معهم. ولا شك أن جزءاً من الغضب انصب على عيسى بن علي،الذي تعاون مع الفرقة المستولية على حائل، وكان الواجهة الرسمية لها.

وبينما كانت العوامل السابقة تتصارع ظن عيسى بن علي أن الأمور قد استقرت له في الجبل. وسواء كان قادة الفرقة يشاركونه ظنّه أم أنهم ــ خاصة يحيى بن سليم ــ كانوا يرون ضرورة العودة إلى القصيم فإن أكثرهم ما لبثوا أن تركوا الجبل عائدين إلى عنيزة (١). ولم يبق عند أمير حائل الجديد سوى مائة جندي. وربما كان بعض هؤلاء في بلدة قفار، التي كانت قوية آنذاك.

ومن المرجّح أنه كان من نتائج انسحاب أكثرية رجال الفرقة المذكورة من الجبل بدء المقاومة ضد من بقي منها. وكان من جوانب هذه المقاومة ظاهرة الاغتيالات لأفرادهم. لكن النتيجة لذلك الانسحاب كانت إتاحة فرصة طيبة لعبدالله بن رشيد ليبدأ بتنفيذ تحدّيه لعيسى بن علي، والقضاء على سلطته.

---

(١) يلاحظ أن إبراهيم المعاون كان موجوداً في الرياض في شوال سنة ١٢٥٣ هـ. انظر عنوان: ١٩٨/٢.

ويبدو أنه كان يوجد شعور قويّ بمقاومة أولئك الأفراد الأجانب لدى فريق من أهل قفار. ولذلك فإن عبدالله بن رشيد ترك جبّة مع أخيه عبيد وأعوانه، واتّجه إلى هذه البلدة ليجعلها مركزاً لعملياته ضد عيسى.

ولقد نجح عبدالله بفضل وجود الشعور المذكور عند بعض أهل قفار، وبفضل دهائه وشجاعة أخيه عبيد، في تثبيت مركزه هناك، وإجبار أفراد الفرقة الموجودين في البلدة على مغادرتها إلى حائل. وهكذا أصبح هناك مركزان للقوة في منطقة جبل شمّر: أحدهما في حائل والآخر في قفار. لكن هذا الوضع لم يستمر إلا فترة قصيرة. ذلك أن سنة ١٢٥٣هـ، التي هرب في بدايتها عبدالله بن رشيد من حائل لم تنته إلا وقد عادت إمارة هذه البلدة إليه. وكما شهد أول تلك السنة استيلاء عيسى بن علي على إمارة الجبل شهد آخرها هروبه من بلدته منهياً بذلك إمارة أسرته عليها.

ومع أن نهاية القضية السابقة واضحة فإن الكيفية التي تمت بها ليست من الوضوح بمكان. والمصادر تختلف حولها اختلافا كبيرا. فابن بشر يشير إلى الحوادث المحيطة بهذه القضية بصورة مختصرة ومبهمة، نوعا ما، إذا ما قورنت بروايته لحوادث تلك الفترة. فهو يقول:

> «وفي هذه السنة (١٢٥٣)، وفيصل على الرياض، أقبل عبدالله بن علي بن رشيد، رئيس الجبل، ومعه من أعوانه وعشيرته رجال لمحاربة عيسى بن علي، ونزل عند بني تميم في بلد قفار المعروفة، وأقام عندهم. وبعد ذلك سطا على عيسى، وأخرجه من قصره ومن البلد، وقتل رجالا ونهب أموالاً[1] ».

أما اختصار هذه الرواية فواضح. وأما إبهامها فيعود إلى أمور عدة. فابن بشر لم يحدّد تاريخ إقبال عبدالله تحديدا دقيقا، وإنما قال:«وفيصل على الرياض». ويعني، بدون شك، وفيصل محاصر لهذه المدينة. لكنه هو قد روى

(١) عنوان : ٢/٩٩.

أن حصار فيصل للرياض كان من أول جمادى الثانية حتى النصف الأخير من شهر ذي القعدة[١] . ومن هنا، فإن أي يوم من هذه الفترة التي امتدت حوالي نصف سنة قابل لأن يكون يوم تاريخ إقبال عبدالله. وهو لم يحدّد المكان الذي أقبل منه هذا الأخير. وإذا ضم إلى ذلك عدم ذكره المكان الذي كان عبدالله قد اتّجه إليه بعد هروبه من حائل أول السنة المذكورة اتضح غموض ما ذكره[٢] . وقوله: «وأقام عندهم» لم يحدّد فيه طول الإقامة، كما لم يشر إلى أي نشاط كان عبدالله يقوم به. وعبارة «وبعد ذلك سطا على عيسى» لم يذكر فيها زمن السطو. ولقد أشار إلى إخراج عبدالله لعيسى من قصره ومن البلد، لكنه ليس من الواضح ما إذا كان عبدالله بن رشيد قادرا على القبض عليه واكتفى بإخراجه آمنا من القصر ومن البلد أم أنه لم يكن قادراً على ذلك وإنما اضطره فقط إلى الخروج منهما نتيجة لمحاصرته له. وقد ذكر ابن بشر، أيضا، أن عبدالله «قتل رجالا ونهب أموالا» لكنه لم يعط أسماء هؤلاء المقتولين ولا عددهم، كما لم يشر إلى الذين نهبت منهم الأموال ولا إلى مقاديرها.

ولقد أشار هوبير ـــ كما سبق[٣]ـــ إلى أن عبدالله، بناء على مشورة أحد القادمين من المدينة المنوّرة، ذهب من قفار لمقابلة فرقة من الجيش كانت قد اتجهت من هناك إلى نجد لتعزيز مركز خالد بن سعود، وأن عبيد بن رشيد هاجم حائل أثناء غياب أخيه. وكانت نتيجة هذا الهجوم هروب عيسى من البلد. بينما ذكر ضاري الرشيد أن عبدالله قد ذهب إلى المدينة ـــ بناء على نصيحة العريفي القادم من هناك ـــ للتفاوض مع خورشيد، وأن أخاه عبيداً هاجم حائل أثناء غياب عبدالله وانتزعها من صالح[٤] . وإذا كان من المؤكد أن عبدالله قد أصبح أميراً على حائل بدلا من صالح دون حرب، وأن

(١) المصدر السابق : ٢/٩٥ـــ٩٨.
(٢) المصدر السابق : ٢/٩٢.
(٣) انظر صفحة ٤٩ من هذه الدراسة.
(٤) **نبذة** : ٧١ـــ٧٢.

قضية صالح كانت قبل مجيىء حملة خورشيد فإن رواية ضاري عن صالح تلائم عيسى. وبذلك تتمشّى مع ما ذكر هوبير وتتجنّب الخطأ الواضح. وإذا أخذ هذا بعين الاعتبار فهل يمكن تأويل عبارة ابن بشر المتعلّقة بسطو عبدالله على عيسى بأن المقصود منها لم يكن عبدالله بالذات ـــ كما هو ظاهر العبارة ـــ وإنما سطو أخيه عبيد، الذي كان يتصرف نيابة عنه في غيابه؟.

لقد رأى عبدالله بن رشيد قوة الحملة المصرية، ولاحظ عدم تحمّس كثير من سكّان نجد للوقوف ضدها. بل إنه رأى تخاذل سكّان الرياض أنفسهم عن نصرة إمامهم فيصل، وقدوم زعمائهم إلى عنيزة لإعلان الولاء والطاعة لقائدي الحملة المذكورة: خالد بن سعود وإسماعيل أغا. ثم رأى دخول هذين القائدين الرياض دون مقاومة. وهكذا أدرك بذكائه وبتجربته الشخصية أن التفاهم مع ممثلي حاكم مصر أفضل له من معارضتهم، وأن محاولة مقاومتهم عسكريا نوع من المجازفة العقيمة. ومن هنا فإنه، بعد تأكّده من الأخبار التي حملها العريفي إلى حائل، رجع إلى أخيه عبيد في قفار، ثم انطلق من هناك إلى المدينة المنوّرة لمقابلة خورشيد والتفاوض معه.

ومن المرجّح أن هدف عبدالله بن رشيد من ذهابه إلى القائد المصري في المدينة كان تحقيق أحد أمرين: أولهما، وهو المفضّل، أن يحصل منه على معونة عسكرية يصل بها إلى إمارة الجبل مرة أخرى. فإن فشل في الحصول على هذا الأمر المفضّل فإنه سيحاول تحقيق الأمر الثاني، وهو أن يبقى خورشيد وأتباعه على الحياد حتى ينحسم الموقف بينه وبين عيسى بن علي. وفي كلتا الحالتين كان عبدالله بن رشيد، فيما يبدو، مستعدا للاعتراف بسيادة حاكم مصر عليه، وتنفيذ ما يطلبه ممثلوه منه. ولا شك أن ما كان يهمّ خورشيد باشا، في الدرجة الأولى، اعتراف زعماء منطقة نجد بالتبعيّة لحاكم مصر وكسبهم إلى جانبه ليضمن نجاحه ضد الإمام فيصل. وانضمام رجال أقوياء، مثل عبدالله بن رشيد، إلى خورشيد خطوة مهمّة في سبيل نجاحه.

على أن الوثائق تبيّن أن خورشيد كان مهتما غاية الاهتمام، آنذاك، للحصول على ما أمكن الحصول عليه من إبل لنقل الإمدادات التي كانت معه إلى مختلف مناطق نجد، ولنقل بعض من كانوا في هذا القطر إلى الحجاز ليعودوا من هناك إلى مصر. وكان مستعدا، فيما يبدو، للتعاون مع أي شخص يمكن أن يساعده في هذا الموضوع.

وهكذا اتفق عبدالله بن رشيد مع خورشيد باشا على العمل معاً. ومن الواضح أن من الأمور التي اتفقا عليها تعيين عبدالله أميرا على جبل شمّر مقابل إمداده لخورشيد بأعداد كبيرة من الإبل. ومن المعروف أن أهم وسيلة لدى عبدالله للحصول على ما كان يريده القائد المصريّ منه هي غزو القبائل. ولأن ذلك الغزو كان يحتاج إلى قوة تدعمه فإن خورشيد بعث مع عبدالله خمسين ومائة فارس من جنوده. ومن الواضح أن هذه الفرقة لم تكن كبيرة في حجمها. لكن مما يجعلها مهابة في عيون الآخرين تبعيتها للحملة المصرية التي رأت القبائل وأدركت قوة نفوذها في كثير من مناطق نجد.

ولقد وصف خورشيد نفسه نتائج زيارة عبدالله بن رشيد له في المدينة المنوّرة، والأهداف التي جعلته يعيّنه أميرا على جبل شمّر، كما بيّن الأعمال التي قام بها عبدالله لخدمة الحملة المصرية. وذلك في رسالة بعثها من عنيزة إلى محمد علي في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٢٥٤هـ حيث قال:

> «كنت عرضت سابقا أن المدعو عبدالله بن رشيد من جبل شمّر قابلني في المدينة في شهر رجب سنة ١٢٥٣ هـ، وكيف أني توسّمت فيه أنه ينفعنا في إحضار الجمال اللازمة لنقل الجيش، ويفيدنا انفصاله من موالاة فيصل بن تركي. وكان لهذا أسندت إليه إمارة جبل شمّر. ومن ذاك الوقت إلى الآن قد أرسل من عنزة وشمّر الجمال اللازمة لنقل الجيش ثلاث ــ أربع مرات (هكذا). وكان ما يرسله في كل مرة يزيد عن ستمائة جمل. وقد حارب غير مرة القبائل التي امتنعت من إعطاء الجمَال. وقد

أصيب في رجله في الحرب الأخيرة إصابة أحدثت فيها عاهة في سبيل خدمة وليّ النعم...»[١]

وبغض النظر عن أعداد الإبل التي ذكرت في هذه الرسالة فإن ما ورد فيها يؤيد، بوجه عام، ما ذكره ضاري الرشيد من هجوم عبدالله بن رشيد، مع الفرقة التي بعثها معه خورشيد، على فريقين من قبيلة عنزة وحصوله على أربعمائة بعير من أحدهما وعلى ألف بعير من الآخر [٢] .

وفي خلال وفادة عبدالله بن رشيد إلى خورشيد باشا في المدينة، وقيامه بما سبق ذكره من أعمال قام أخوه عبيد بمهاجمة عيسى بن علي في حائل واضطره إلى الهروب من هذه البلدة. ومن المحتمل أن إقدام عبيد على مهاجمة حائل كان نتيجة اقتناع بتحسّن موقفه العسكري. وربما كان من أسباب اندفاعه وإقدامه محاولة تحقيق مجد شخصي، والقيام بأمور قد لا يوافقه أخوه على القيام بها لو كان حاضراً.

وحين وصلت أخبار انتصار عبيد بن رشيد على عيسى بن علي إلى أخيه عبدالله في المستجدّة بعث الإبل التي حصل عليها من عنزة إلى خورشيد في المدينة المنوّرة، وأسرع إلى حائل ليدخلها منتصرا. وليس من المؤكد ما إذا كان رجال الفرقة العسكرية المرافقة لعبدالله قد عادوا كلهم مع الإبل المذكورة إلى المدينة أم لا. ذلك أن الوثائق تفيد أنه كان يوجد في جبل شمّر خيّالة تابعون لخورشيد في شهر ذي الحجة سنة ١٢٥٣هـ[٣]. وليس من الواضح متى قدم أولئك الخيّالة إلى الجبل.

وإذا كانت إمارة جبل شمّر قد أصبحت أخيراً في يد عبدالله بن رشيد دون منازع محلّي فماذا كان مصير عيسى بن علي؟.

من المحتمل أنه قد اتجه إلى المدينة المنوّرة بعد هروبه من حائل، وأنه قابل خورشيد فيها، أو قابله بعد خروجه منها بقليل. ومن المحتمل، أيضا، أنه

(١) محفظة ٢٦٤ عابدين (٢٤).

(٢) نبذة : ٧٢ — ٧٣.

(٣) محفظة ٢٦٤ عابدين (٩٤).

توجه إلى القصيم التي كانت قاعدة من قواعد الحملات المصرية، وأنه جلس هناك حتى قابل خورشيد فيما بعد. ذلك أن هذا القائد لم يصل إلى تلك المنطقة إلا في ربيع الأول من سنة ١٢٥٤هـ. وعلى أية حال، فإن عيسى بن علي لقي ترحيبا من قِبَل خورشيد، كما كان منتظرا. وكان ذلك الترحيب، فيما يبدو، عائداً إلى سببين : الأول أن عيسى كان ممن تعاون مع أسلاف خورشيد، وإن كان ذلك التعاون لمصلحته. ومن هنا، فإنه كان محسوباً على ممثلي الحكم المصري بدرجة معيّنة. والسبب الثاني، وهو الأهم، أن الترحيب به وإبقاءه مكرماً فيهما ضمان كبير لبقاء خصمه عبدالله بن رشيد على ولائه لحاكم مصر. ذلك أنه كان من الممكن جداً استعمال عيسى ضد عبدالله إن حاول تغيير موقفه إلى ما لا يتلاءم مع السياسة المصرية. وكإرضاء لعيسى بن علي عيّنه خورشيد، فيما بعد، مديرا لبيت المال في منطقة الأحساء الغنية، وذلك سنة ١٢٥٥هـ. لكنه لم ينعم بذلك المنصب طويلا، إذ توفي هناك في السنة التالية(١).

(١) **عنوان**: ٢/ ١١١ ــ١١٢و١١٥ .ومع أن عيسى لعب دوراً لا يستهان به في حوادث الجبل فإن في المصادر غموضا حول تسلسل نسبه. فموزل (**شمال نجد**: ٢٣٧و٢٣٩) يذكر أنه كان لمحمد ابن عبدالمحسن ابن اسمه عيسى، وأنه خلف أباه في إمارة الجبل. والواضح من كلامه أنه يرى أن عيسى هذا هو الذي لعب الدور المذكور. وهناك من آل علي الموجودين الآن من يقول: إنه لم يكن لمحمد ابن ذكر، وإنما كانت له بنات أربع. لكن منهم من يقول إنه كان له ابن اسمه عيسى، ويرجح أنه المقصود هنا. أمّا ابن بشر فذكر عيسى أربع مرات، في ثلاث منها قال عنه عيسى بن علي (**عنوان**: ٢/ ٤١، ٩٢، ٩٩). واسم علي في مثل هذا السياق يقصد به عادة اسم الأسرة لا اسم الأب. أمّا في الرابعة فسماه عيسى بن علي بن فايز (**عنوان**: ٢/ ١١١). وعلي في مثل السياق الأخير يقصد به اسم الأب. وإذن فإن فائزا كان جدا لعيسى، وعيسى كان ابن عم لصالح بن عبدالمحسن. لكن هوبير (١٥٤) وضاري الرشيد (**نبذة** : ٧١و٧٤) يقولان إن من قام بالأحداث كان عيسى بن عبيدالله. وإذا كان الأمر كذلك فمن هو عبيدالله؟.

ذكر في ورقة عند السيد نايف آل علي في حائل أن عبيدالله ابن عم لصالح بن عبدالمحسن. أمّا أسرة آل علي الموجودين في الوقت الحاضر فإنهم من نسل عيسى بن صالح بن عبدالمحسن. وكان عيسى هذا طفلا حين وقعت الأحداث على أبيه فأخفته أمه حتى استقرت الأمور فيما بعد.

لكن انتهاء قضية الصراع حول إمارة جبل شمّر بين آل علي وآل رشيد بانتصار الفريق الثاني لم يكن يعني نهاية كل الأمور المتعلّقة بهذه القضية. لقد جاء عبدالله بن رشيد، أخيراً، إلى الإمارة عن طريق القوة، مؤيداً أو معترفاً به من قِبل خورشيد باشا. وقليلون في مسيرة التاريخ أولئك الذين جابهتهم ظروف مثل تلك الظروف التي واجهت عبدالله بن رشيد ووقفوا عند حد الانتصار على خصومهم دون محاولة انتقام. ولقد ذكر ابن بشر ـــ وهو غالباً ما أضفى على عبدالله صفات العظمة ـــ أنه بعد انتصاره على عيسى بن علي قتل رجالًا ونهب أموالًا[١]. كما ذكر ما يدل على أن عبدالله لم يكتف بمعاقبة خصومه في الساعات المباشرة لذلك الانتصار وإنما تعقّب مؤيدي آل علي بعد ذلك في مناطق أخرى خارج منطقة الجبل[٢]. لكن المرجّح أن الذي قام بمهاجمة عيسى بن علي عبيد بن رشيد لا عبدالله، كما سبق أن ذكر[٣]. وعدم ذكر ابن بشر لأسماء من قتل، وكذلك عدم ذكره أسماء من نهبت منهم الأموال ومقاديرها من الأمور التي لا تدل على قوة روايته. على أنه ليس في المصادر المتوافرة ما ينفي حدوث قتل لأناس من أهل حائل عقب الانتصار على عيسى بن علي سواء حدث ذلك على يدي عبدالله بن رشيد أم على يدي أخيه عبيد. أمّا مسألة تعقّب مؤيدي آل علي في مناطق خارج جبل شمّر فإنها من الأمور المرجّحة جداً. ومن المحتمل أن تلك الإجراءات التي قام بها عبدالله بن رشيد كانت مزيجاً من الانتقام لما حصل في الماضي والاحتراس مما يخشى وقوعه في المستقبل فيما لو بقي من تعقّبهم على قيد الحياة، خاصة أن عيسى بن علي كان ما يزال حياً. وإذا قبل ما ذكره ابن بشر عن هذا الموضوع بهذا التفسير فإن تعبيره بنهب عبدالله لأموال له دلالته الخاصة. ولقد أشار هوبير، أيضاً، إلى أن عبدالله بن رشيد

(١) **عنوان** : ٢/٩٩.
(٢) المصدر السابق: ٢/١٠٢ـــ١٠٣
(٣) انظر صفحة ٦٤ من هذه الدراسة.

استولى على قصر مغيضة الذي كان لمحمد بن عبد المحسن آل علي، لكنه أشار في نفس الوقت إلى أن عبدالله قد اشترى قصر برزان، الذي لم يكن قد اكتمل بناؤه آنذاك[١].

وقد ظل عبدالله بن رشيد أميراً غير منازع في منطقته منذ انتصاره على عيسى بن علي سنة ١٢٥٣هـ حتى وفاته في جمادى الأولى سنة ١٢٦٣هـ [٢]. وكانت إمارة جبل شمّر خلال هذه السنوات العشر تزداد قوة ورسوخا يوما بعد يوم، كما كان نفوذها خارج منطقة الجبل المذكور يزداد توسعا وانتشارا سنة بعد أخرى. فما هي العوامل التي أدت إلى نجاح ذلك الأمير؟ وما هي مصادر دخله ووجوه إنفاقه؟ وكيف كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في عهده؟ ثم كيف كانت علاقته بالقوى الأخرى سواء تلك التي كان لها نفوذ في سائر مناطق نجد، بصفة عامة، أم تلك التي كانت مجاورة لإمارته جنوباً أو شمالاً؟.

---

(١) **هوبير** : ١٥٧. وقد ذكر هذا الرحّالة أن عبدالله اشترى قصر برزان ونساء أسرة آل علي، لإن رجال هذه الأسرة قد قتلوا. وكان ثمن الجميع ألف ريال. وليس من المؤكد ما إذا كان عبدالله قد اشترى القصر المذكور ــ كما ورد في رواية هوبير ــ أم أنه اعتبره قصراً للإمارة يحتلّه من يتولّى السلطة في البلاد. ومن الواضح أن ما ذكره هوبير من شراء عبدالله لنساء أسرة آل علي أمر لا يمكن قبوله إلا إذا فسرت كلمة نساء بمعنى مملوكات لأن غيرهن لا يمكن أن يبعن ويشترين. ومن الممكن أن عبدالله تزوّج إحدى نساء آل علي بعد هذه الحوادث، كما تزوّج ابنة محمد بن عبدالمحسن قبل ذلك، وكما تزوّج أخوه عبيد ابنة عيسى بن عبيدالله أو أخته هدلاء. ثم طلّقها وتزوّجها زامل السبهان. وفي تلك المناسبة قال عبيد:

ليلي طويل وليل زامل قصير   هذي تدابير الولي يا بن سبهان

(٢) **عنوان** : ١٤٩/٢.

الفصل الرابع

عوامل نجاح الأمير عبدالله بن رشيد ومصادر دخله ووجوه إنفاقه

من تتبّع سيرة عبدالله بن علي بن رشيد ودراسة الظروف التي أحاطت به يتضح أن العوامل التي أدّت إلى نجاحه كانت متعددة. ولعلّ أهمها ثلاثة: صفاته القيادية الشخصية، والعلاقة الخاصة التي كانت موجودة بينه وبين ركيزة قوته، ثم الظروف التي أحاطت به وبمنطقته.

فالمصادر التاريخية المختلفة تكاد تتفق على عظمة عبدالله بن رشيد، مشيرة إلى أهم الصفات التي أسهمت في إبراز تلك العظمة، وهي الشجاعة وسداد الرأي والكرم. فالفاخري، المعاصر له، يقول عنه:

«كان صارماً مهيباً، أرجف الأعراب بالغارات حتى خافه قريبهم وبعيدهم.»(١) .

وابن بشر يتحدث عن شجاعته وسداد رأيه في مواضع مختلفة من تاريخه.(٢) وأخوه عبيد بن علي بن رشيد يصفه بالكرم وعزة المنزلة وعلوّ السطوة بقوله:

يَتْلون عيد الضيف ريف المساكين
الشيخ أبو متعب عزيز النزايل(٣)

(١) الفاخري : ١٣٥.
(٢) عنوان : ٢/٦٥،٦٦،٦٧ و١٤٩.
(٣) الأزهار : ٣/٧٥.

وضاري الرشيد يقول عنه: إنه شجاع حليم كريم (١)

ولقد عبّر عبدالله بن رشيد نفسه عن شجاعنه وكرمه في قصيدته التي يقول فيها:

لي ديرة مابَهْ حذا البرد والجوع
لولاي عفّيتَهْ بضرب الهنادي(٢)

حميتها عن كل دوّار مطموع
حيّ نصبّحهم وحيّ نهادي

أخو عبيد إلى هبا كل مسبوع
أسهر إلى نامت عيون السراد(٣)

أحاول الدنيا بداخل ومطلوع
بالمال والّا مرهفات الحداد

كم خيّرٍ عانٍ لنا شاكي الجوع
حاديه من لوعات الايام حادي(٤)

لو ما نعرفه راح منا بمطموع
من راس مال نجمعه للنفاد(٥)

أمّا الرحالة والين، الذي كان معجبا بعبدالله بن رشيد كل الإعجاب، فإنه أضاف إلى ذلك الأمير من المزايا، التي كانت في رأيه من عوامل نجاحه، ما هو أكثر من الصفات الثلاث السابقة الذكر. ذلك أنه حين تحدث عن نجاحه قال:

---

(١) **نبذة** : ٧٣.

(٢) حذا : سوى. عفّيته : ذدت عنها. الهنادي : السيوف الهندية.

(٣) هبا : خاف وذل. مسبوع : خائف.

(٤) خيّر : طيب. عانٍ لنا : قاصدنا

(٥) فهد المارك، **من شيم العرب** : ١/١٩١ــ١٩٢.

« لكن القوة والمال لم يكونا وحدهما سبباً في نفوذ عبدالله بين العرب. بل كان لصفاته الشخصية وشجاعته ورجولته وعدله ومحافظته على وعده وعهده، ولحسن ضيافته وكرمه على الفقير الدور الكبير في ذلك»[١] .

ولعلّ مما يوضح نظرة المجتمع إلى تلك الصفات القيادية المتوفرة في شخصية عبدالله بن رشيد، وتقديرهم لأثرها، أن أناساً من خصومه اعتقدوا أن الإمارة سوف تنهار بوفاته. ولذلك فإنه ما أن وافتهم الأخبار بهذه الوفاة حتى استبشروا خيراً. وقد ردّ أخوه عبيد على شعور هؤلاء بأبيات أوضح فيها أن الإمارة قوية رغم ما حلّ بها:

قل للعدوّ اللّي تبهّج بالاخبار
وفرح على امر نازل من سماها

وقطع براي انه طفت شعلة النار
حنّا شباة النار نوقد سناها[٢]

حرّم على ذِروات ما ترمي الاكوار
لما تجي دُبْرٍ تصاقع حفاها[٣]

وكان يربط عبدالله بن رشيد بعناصر قوّته العسكرية علاقة خاصة قلّ أن توجد بين زعيم آخر وبين أتباعه في منطقة نجد آنذاك. كان على رأس قادة

---

(١) والين، **قصة** : ١٨٢.

(٢) قطع براي : اعتقد.

(٣) ذروات: اسم خاص يطلق على إبل آل رشيد، وقد جرت العادة أن تكون لإبل بعض الزعماء أسماء خاصة بها ترمز إلى جودتها ومبلغ منزلتها لدى أصحابها. دُبْر : قد أصابها الدبر، وهو أثر مؤلم في جلد البعير يحدث غالبا من بطء الشداد أو الكور على ظهرها. لما : إلى أن . الحفا : أثر يظهر في خفّ البعير من كثرة السير.

والأبيات الثلاثة من رواية محمد العلي العبيّد.

جيشه عبيد بن رشيد، الذي كان مضرب المثل في الشجاعة والفروسية، كما كان شاعراً قوي التعبير بالغ التأثير. ولا شك أن كونه شقيقاً لعبدالله، متفقاً معه، قد رسم دوره بدرجة واضحة. ذلك أنه استخدم كل مؤهلاته البطولية والبيانية في خدمة شقيقه، إذ كان يرى مجده مرتبطاً، جزئياً، بمجد ذلك الشقيق. وهكذا لعب عبيد دوراً كبيراً في جميع مراحل طريق عبدالله إلى الزعامة، وكان ساعده الأيمن في إخضاع خصومه وتوسيع نفوذه. ولعلّ ذلك ما جعل عبدالله يقول عنه:

وعبيدٍ اللّي لا عدمنا خياله
حطّه لهم مولاي نجم وزلزال[١]

وكان عبدالله بن رشيد من قبيلة شمّر، ومن عشيرة عبدة التي كانت لها الزعامة في حاضرة الجبل. وكانت هذه القبيلة هي المسيطرة على مراعي منطقة الجبل المذكور.

ومن هنا كان يُنظَر إلى عبدالله من قِبَل أكثر حاضرة جبل شمّر وباديته نظرة إلى قائد من نفس المنطقة ومن نفس القبيلة. ولذا كان انتصاره انتصارا لكثير من أتباعه الحضر الذين كانوا يعتبرونه أميرهم المحلّي، كما كان انتصارا لكثير من أتباعه البدو الذين كانوا يرونه زعيما من زعماء قبيلتهم ذاتها[٢]. ونتيجة لذلك كان هناك ارتباط قويّ بين أفراد جيشه من الحضر والبدو. وهذا ما أدّى إلى استبسال الجميع وتحقيق انتصار إثر انتصار. ومن المرجّح أن عبدالله بن رشيد، بدهائه المعروف، قد استغلّ الناحية المشار إليها أحسن استغلال. ولعلّ ذلك ما دفع الليدي بلنت إلى القول بأن أحد أسباب نجاحه في مدّ نفوذه إثارته للأفكار القومية[٣].

(١) **نبذة** : ٩٩.

(٢) قد تكون هناك مبالغة في قول هوجارث: إن آل رشيد، في الدرجة الأولى، كانوا رؤساء قبيلة كبيرة، وفي الدرجة الثانية، زعماء مستوطنات مهمتها خدمة هذه القبيلة - انظر
Hogarth, **The Penetration of Arabia**, London, 1905:166.

(٣) Lady Anne Blunt, **A Pilgramage to Nejd:The cradle of the Arab Race**, London, 1963,263.
وسيشار اليه، مستقبلا، باسم مؤلفته بلنت، فقط.

ورغم النظرة الخاصة التي كانت تنظر بها بادية شمّر إلى عبدالله بن رشيد وما ترتّب عليها من أثر في وقوفها معه فإن دور حاضرة الجبل في حروبه كان، فيما يبدو، أكبر من دور البادية. ولعلّه صحيح ما ذكره والين من أن انتصارات عبدالله الحربية تعود إلى السكان المستقرين من شمّر أكثر مما تعود إلى القبائل الرحّل، وأن البدو، رغم انضمامهم إلى جيشه بأعداد كبيرة، يعتبرون قوة مساعدة أو ثانوية(١) . ولا يتنافى ذلك مع قول عبيد بن رشيد:

الخيل ماجتنا شرايا بالاكياس

بوقايع ناطا بهنّ المداريك

والحضر بالبلدان ياكلهم الحاس

ناس خيايطٍ وناس حياييك(٢)

ذلك أن الصنفين المذكورين من الحضر هنا غير أولئك المحاربين الذين لعبوا دورا كبيرا في حروبه، بدون شك، والذين أشاد بهم هو نفسه إلى جانب إشادته بالبدو حين قال:

حضر الجبل والبدو ناتي صليبين

يَتْلَنّنا جملات سود الجدايل(٣)

وبالإضافة إلى ما تقدم فإنه كان من عناصر قوة عبدالله بن رشيد العسكرية فرقة صغيرة العدد لكنها قوية التأثير. كانت تلك الفرقة مكونة من حوالى مائتي رجل، بعضهم كانوا أرقّاء وبعضهم كانوا افرادا من مناطق نجدية

(١) والين، **قصة** : ١٧٨ــ١٧٩.

(٢) **الأزهار** : ٣/٧٨. الحاس: نوع من الحشرات، والمقصود بعبارة «ياكلهم الحاس» أنهم ثاوون في البلدان لا يمارسون أعمال البطولة كالغزو.

(٣) ــ المصدر السابق : ٣/٧٤.

مختلفة التحقوا بخدمة الأمير والبعض الآخر كانوا أفراداً من جنود الحملات المصرية على جزيرة العرب طاب لهم المقام في حائل فأقاموا[١]. وقد أصبح هؤلاء بمثابة حرس لأمير الجبل. لكن كانت لهم، أيضاً، مساهمة جيدة في حروبه. وكان هؤلاء ذوي خبرة حربية، وقد جعلهم وضعهم الخاص يخلصون لسيدهم كل الإخلاص.

أما بالنسبة للظروف التي أحاطت بعبدالله بن رشيد وبمنطقته والتي كانت من عوامل نجاحه فواضحة من خلال قراءة هذه الدراسة. ويمكن تلخيص أهمها بالنقاط الآتية:

١ ـــ حادثة اغتيال الإمام تركي بن عبدالله آل سعود

ذلك أن الدور الذي قام به عبدالله بن رشيد في القضاء على مشاري بن عبدالرحمن المدبّر لاغتيال ذلك الإمام، كان خطوة مهمّة جدا لتعيينه أميراً على جبل شمّر من قِبَل فيصل بن تركي.

٢ ـــ حملة خورشيد

صحيح أن عبدالله بن رشيد خسر كرسي إمارة الجبل بسبب جنود حملة إسماعيل أغا وخالد بن سعود المتحالفين مع خصمه عيسى بن علي. لكنه نجح في كسب القائد خورشيد إلى جانبه مما ثبّت مركزه في إمارة الجبل من جديد.

٣ ـــ انسحاب الجيش المصري من نجد

ذلك أن انسحاب ذلك الجيش قد ترك فراغاً في المنطقة، خاصة أن الإمام فيصل بن تركي قد خسر المعركة مع المصريين وأخذ أسيراً إلى القاهرة. وكان ذلك فرصة لعبدالله بن رشيد ليتحرك بصورة أكثر استقلالية.

---

(١) والين، **قصة** : ١٨٠. بينما يذكر موزل (**شمال نجد**:٢٣٨) أن عدد الأفراد الذين تخلّفوا عن الحملات المصرية في حائل وأصبحوا من رجال عبدالله كان خمسين ومائتي رجل.

٤ ــ الخلاف الداخلي في منطقة الجوف

فقد أتاح ذلك الخلاف الفرصة لعبدالله بن رشيد للتدخّل في شؤون تلك المنطقة. وكانت نتيجة تدخّله أن بسط له نوعا من النفوذ هناك تمثّل في دفع سكان الجوف الزكاة إليه.

٥ ــ الموقع الجغرافي لمنطقة جبل شمّر

ذلك أن موقعها جعل قوافل التجارة والحج من العراق وبلاد فارس تمّر بها. وكان عبدالله بن رشيد يستفيد من ذلك بفرض ضرائب عليها. وقد أسهم دخله منها في تغطية كثير من مصاريفه واحتياجاته.

وكانت مصادر دخل إمارة عبدالله بن رشيد متعددة. منها ما كان آنياً، ومنها ما كان مستمرّاً طيلة فترة إمارته. فقد ذكرت بعض المصادر أنه استولى على أموال خصومه، خاصة آل علي، فور انتصاره عليهم واستقراره في إمارة الجبل[١] . لكنه من الواضح أن أهمية هذه الأموال لم تكن كبيرة مقارنة بمصادر دخله الأخرى المستمرّة كالزكاة، وضريبة القوافل، وغنائم الغزوات.

كان عبدالله بن رشيد قد نجح في مدّ نوع من النفوذ له على مناطق بعيدة، نسبيا، عن جبل شمّر كالجوف، وعلى قبائل موجودة ما بين الجبل وتلك المناطق كفئات من قبيلة عنزة. وقد تمثّل ذلك النفوذ في دفع الزكاة إليه[٢] . وكانت الثروة الحيوانية لدى القبائل، والمنتجات الزراعية عند الحضر أهم الأمور التي تؤخذ منها الزكاة. وبمقدار ما حقّقه عبدالله بن رشيد من نفوذ أكّدته المصادر ــ في منطقة الجبل وخارجها ــ كان دخله من هذا المصدر عظيماً.

وليس من المؤكد معرفة نسبة دخل عبدالله بن رشيد من ضرائب مرور قوافل الحج والتجارة في بلاده إلى مجموع دخله. لكن الليدي بلنت قدّرت

---

(١) **عنوان**: ٢/٩٩. وقارنه بوالين، **قصة** : ١٨٢ **وهوبير** : ١٥٧.

(٢) والين، **قصة** : ١٩.

دخل ابنه محمد من تلك الضرائب بربع دخله العام[١] . ومن المرجّح أن نسبة زيادة الحجاج والتجار المارّين بجبل شمّر لم تزد زمن الأمير محمد عمّا كانت عليه زمن أبيه بمثل زيادة نفوذ إمارته، وأن نسبة ما كان يؤخذ من كل واحد منهم لم تتغير كثيراً. وهذا يعني أن دخل عبدالله من ضرائب مرور القوافل كان أكثر من ربع دخله كله. على أن والين قد أشار إلى أن هذا الأمير كان يبعث، أحيانا، قليلا من دخل مرور القوافل بالجبل إلى الإمام فيصل بن تركي[٢] . ومن المرجّح أن محمد بن رشيد لم يكن يبعث شيئا من ذلك إلى حكومة الرياض. ومن هنا فإنه من المحتمل جداً أن نسبة دخل عبدالله من ضرائب مرور القوافل بإمارته كانت مساوية لنسبة دخل ابنه محمد منها.

ولقد اشتهر عبدالله بن رشيد بكثرة غزواته، التي كان أغلبها يكلّل بالنجاح. ومن المعروف أن الحاكم يأخذ خمس الغنائم من الناحية الشرعية. لكن بعض أتباع ذلك الأمير كانوا يشكون من عدم تمشّيه مع أوامر الشرع في هذه القضية، ويقولون إنه كان يأخذ من الغنائم ما يريد[٣] . وعلى هذا الأساس، فإنه من المحتمل أن دخل أمير الجبل من هذا المصدر كان كبيراً. وكان لدى عبد الله بن رشيد من الخيل حوالى مائتين. إضافة إلى ما كان يهديه منها إلى آل سعود وإلى حكام مكة والمدينة وبغداد، وإلى ما كان يبيعه منها إلى القبائل المختلفة[٤] . ويدّعي أخوه عبيد أن مصدر هذه الخيل الحروب التي كانوا يشنّونها على خصومهم حيث يقول:

الخيل ما جتنا شرايا بالاكياس
بوقايـــع ناطـــا بهن المداريك[٥]

(١) بلنت : ٢٦٧/١.
(٢) والين، قصة : ١٨١.
(٣) المصدر السابق : ١٧٨ـــ١٧٩.
(٤) المصدر السابق : ١٨٨.
(٥) الأزهار : ٧٨/٣.

ومن الواضح أن جزءاً من ادّعائه كان الغرض منه البرهنة على شجاعتهم. لكن جزءاً من ذلك الادّعاء كان، فيما يبدو، مطابقا للحقيقة.

وإذا كانت تلك مصادر دخل الأمير عبدالله بن رشيد، وهي فيما يبدو كبيرة، فإن وجوه إنفاقه كانت مختلفة. كان منها الإنفاق على شؤونه الخاصة كأمور أسرته وحرسه وخيله. وكان منها الإنفاق على الضيافة. وقد ذكر والين أنه، حين زار حائل، كان لدى عبدالله حوالى مائتي ضيف من مختلف مناطق بلاد العرب[١] . وكان منها، أيضا، الهدايا إلى الزعماء أو الوافدين إليه من الحضر والبدو. ويدّعي عبدالله بن رشيد نفسه أن المال لم يكن هدفا له في حدّ ذاته، وإنما هدفه منه إنفاقه في الكرم:

كم خيّرٍ عانٍ لنا شاكي الجوع
حاديه من لوعات الايام حادي

لوما نعرفه راح منا بمطموع
من راس مال نجمعه للنفاد[٢]

وكرم ذلك الأمير من الأمور التي تتّفق عليها المصادر. لكن سياسته المالية كانت، مع ذلك، حكيمة بحيث أن مصاريفه لم تتعدّ دخله. وتقول الليدي بلنت إنه ترك داراً مملوءة فضة[٣] . وسواء كان ما ذكرته دقيقاً أم لا فإنه من المرجّح أن عبدالله بن رشيد قد مات غنيا لأن مصادر دخله كانت أعظم من وجوه إنفاقه المحدودة.

(١) والين، قصة : ١٨٠.
(٢) فهد المارك، من شيم العرب: ١/١٩٢.
(٣) بلنت : ١/٢٦٣ـــ٢٦٤.

الفصل الخامس

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في إمارة عبدالله بن رشيد

من الواضح أن نسبة البادية إلى الحاضرة في منطقة جبل شمّر لم تكن مستقرة، وإنما كانت تتأثر بالظروف المحيطة بها. فقبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت بادية المنطقة أكثر من حاضرتها. لكن قسما كبيرا من قبيلة شمّر، بقيادة الجرباء، غادر منطقة الجبل إلى العراق إثر انتصار زعماء الدعوة المذكورة عليه[١] . وليس من المؤكد ما إذا كانت أعداد الفئات القبلية الأخرى التي دخلت إلى المنطقة بعد ذلك مساوية لأعداد الذين غادروها. وليس من المؤكد، أيضا، ماذا كانت نسبة التحضّر خلال الفترة التي امتدت من هجرة الجرباء وأتباعه إلى نهاية عهد الأمير عبدالله بن رشيد. لكن الرحّالة والين، على أية حال، يذكر أن نسبة التحضّر، أو استقرار البادية، كانت في ازدياد ملحوظ[٢] . وما ذكره أمر مرجّح الوقوع. لكن ما أشار إليه ذلك الرحّالة من أن عدد حاضرة جبل شمّر كان، في عهده، ضعف عدد باديتها قول لا يمكن قبوله دون تحفظ[٣] . ذلك أن جورماني، الذي زار هذه المنطقة بعده بحوالى عشرين عاما، قد أشار إلى أن حضر جبل شمّر كانوا أقل من بدوه[٤] .

(١) انظر صفحة ١٠ من هذه الدراسة.

(٢) والين، **قصة** : ١٩٩.

(٣) المصدر السابق : ٢٠٦.

(٤) Carlo Guarmani, **Northern Najd: A Journey from Jerusalem to Anaiza in Qasim,** translated from the Italian by Capel-Cure, London, 1938:89-90.

وسيشار إليه، مستقبلا، باسم مؤلفه، **جوارماني**، فقط.

وبينما قدّر والين سكان منطقة جبل شمّر، حاضرة وبادية، بحوالى ثلاثة آلاف أسرة ــ ما لا يتجاوز عشرين ألف شخص ــ قدّرهم جورماني بخمسة وسبعين ألف نسمة[١] . ومن المستبعد جداً أن يتضاعف العدد أربع مرات تقريباً خلال عشرين سنة، خاصة أن تلك الفترة لم تكن خالية من الحروب، وأن الوقاية الصحية للأطفال كانت مفقودة بشكل عام. ولذلك فإن النموّ السكاني كان بطيئا بدون شك. وإذا كان من المحتمل أن تقدير والين لعدد السكان كان أقل من الحقيقة فإنه من المحتمل، أيضاً، أن تقدير جورماني لذلك العدد كان أكبر من العدد الصحيح لاولئك السكان.

ويبدو أن أحد أسباب عدم انطباق تقدير والين مع الواقع السكاني ناتج عن طريقته في استنتاج ذلك التقدير. فقد قدّر عدد أسر الحاضرة بمقدار عدد البيوت المبنية[٢] . ومن الواضح أن هذه الطريقة لا تنطبق مع الواقع. ففي تلك الفترة كان الأقارب، غالباً، يسكنون في بيت واحد، فيضم البيت الأب وأبناءه المتزوجين وأولادهم. وما زال هذا التقليد متّبعا إلى الوقت الحاضر، وإن كان قد بدأ يخف كثيرا نتيجة للتطورات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة.

ولعل مما يثير انتباه الباحث ما ذكره والين من صغر حجم بلدة حائل وقلة سكانها إذا ما قورنت ببعض بلدان المنطقة الأخرى رغم أنها كانت، آنذاك، مركز ثقل سياسي وعسكري. فقد قدّر سكانها بمائتين وعشر أسر، بينما قدّر سكان قفار بخمسمائة أسرة. بل إنه قدّر سكان بلدان لم تكن مشهورة بما يقرب من سكان حائل. فقد ذكر، مثلا، أن سكان المستجدة حوالى مائتي أسرة، وسكان جبّة حوالى سبعين ومائة أسرة[٣] . لكن الصورة تغيّرت بعد ذلك بقليل. ذلك أن جورماني قدّر سكان حائل حين زارها بسبعة آلاف

(١) والين، **قصة** : ١٩٩ وقارنه **بجوارماني** : ٨٩.

(٢) والين، **قصة** : ٢٠١

(٣) المصدر السابق: ٢٠١ ــ ٢٠٢و١٦٣.

وخمسمائة شخص، وقدّر سكان قفار بثمانية آلاف وخمسمائة نفر[١]. والمهمّ فيما ذكره هذا الرحالة أن سكان حائل ازدادوا لدرجة أن عددهم أصبح قريبا من عدد سكان قفار، بينما كانوا أقل من نصف هؤلاء قبل عشرين سنة من زيارته للمنطقة. ومن الواضح أن من أهم أسباب ذلك ازدياد قوة آل رشيد واجتذاب قاعدتهم، حائلٍ، للتجار وأصحاب المهن زمن طلال بن عبدالله، الذي بذل جهدا كبيراً لتنمية الحياة الاقتصادية في بلاده[٢].

والمتتبع للمصادر التاريخية يلاحظ أن مجتمع منطقة جبل شمّر كان، في تلك الفترة، مجتمعاً محافظاً على تقاليده العربية الأصيلة المتفقة، بشكل عام، مع تعاليم الإسلام السمحة. ولقد سبقت الإشارة إلى أن المستوى الثقافي الديني في هذه المنطقة، قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، كان منخفضاً بالمقارنة مع ما كان سائداً في كثير من المناطق النجدية الأخرى[٣]. كما سبقت الإشارة، أيضاً، إلى إسهام زعامة الجبل وسكانه في نشر هذه الدعوة والوقوف مع من كان يناصرها خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري. ومن الواضح أن الدعوة المذكورة قد تركت أثراً في مجتمع جبل شمّر من الناحيتين الثقافية والدينية. لكن ذلك الأثر لم يكن مماثلاً، فيما يبدو، لأثرها في مناطق وسط نجد.

كان أهل منطقة جبل شمّر متمسّكين بما نادت به دعوة الشيخ من أمور ذات صلة بالعقيدة، كرفض التوسل المحرّم بالصالحين. وكانوا ملتزمين بما نادت به من أمور تتعلّق بتطبيق الدين، كصلاة الجماعة في المساجد ومعاقبة من لا يحضرها. وطبقا لما ذكره والين كان في كل حيّ من أحياء حائل مسجد تصلّى فيه الصلوات الخمس جماعة، إضافة إلى مسجد

---

(١) **جوارماني** : ٩٠

(٢) **بلجريف** : ١/ ١٣٠

(٣) انظر صفحة ٢ هذه الدراسة.

الجامع الكبير الذي كانت تصلّى فيه صلاة الجمعة. ومما لاحظه ذلك الرحّالة أن النساء كنّ يصلين صلاة الجمعة خلف الرجال في المسجد بينما يصلين الصلوات الأخرى في بيوتهن(١).

لكن سكّان جبل شمّر كانوا أقل تمسّكا في بعض الأمور الفرعية من سكان وسط نجد، خاصة العارض. من ذلك تسامحهم في لبس الرجال للحرير، وتدخين التبغ، رغم أن المدخّن كان غير محبوب، بوجه عام، وأنه كان لا يؤم الناس في الصلاة أو يؤذن فيهم(٢) . وربما كان هذا التسامح سبباً من أسباب تحامل الشيخ أحمد بن عبيد عليهم، كما ورد في أحد المصادر(٣) . ومن الواضح أن كون منطقة جبل شمّر ممرّاً لقوافل التجارة وحجاج ما بين النهرين وبلاد فارس قد ترك أثره في تكييف مواقف سكانها.

ولقد ظل المستوى الثقافي الديني في منطقة جبل شمّر محدوداً. فقد لاحظ والين ندرة المتعلّمين في حائل باستثناء القاضي، الذي كان علمه محصوراً في الفقه الحنبلي، وإمام مسجد الجامع، الذي كان يحفظ القرآن ويعرف بعض الأحاديث لكنه قليل المعرفة بالأدب واللغة(٤) . لكن الرحّالة قد لاحظ، من جهة أخرى، وجود عدد من السكان يعرفون القراءة والكتابة(٥) . ومما يثير انتباه الباحث أن الاهتمام بالكتب لم يكن مقصوراً على شخصيات ذات علاقة مباشرة بالأمور الدينية، كالقاضي، وإنما تجاوز هؤلاء إلى أناس آخرين

---

(١) والين، **قصة** : ١٨٤. ومن المرجّح أن هدف النساء من صلاة الجمعة في المسجد سماع الخطبة وما فيها من موعظة.

(٢) المصدر السابق : ١٨٣.

(٣) علي الهندي، **زهر الخمائل** ..: ٨٠. وكان أحمد من أهل جلاجل، لكنه أصبح قاضيا في حائل.

(٤) والين، **قصة** : ٤ــ١٨٥. ومن القضاة الذين تولّوا قضاء حائل حتى وفاة عبدالله بن رشيد عبدالله بن سليمان بن عبيد، وأخوه أحمد، وعبدالعزيز بن عبدالجبار، ومحمد بن سيف. وكل هؤلاء الأربعة لم يكونوا من منطقة جبل شمّر. انظر علي الهندي، **زهر الخمائل** ..: ٨٠.

(٥) والين، **قصة** : ١٨٥.

لم تكن لهم مثل تلك العلاقة، كعبيد بن علي بن رشيد، الذي كان يوقف الكتب على طلبة العلم في حائل[١]. وإذا كان المستوى الثقافي الديني في منطقة الجبل محدوداً، كما ذكر، فإن لوناً من ألوان الأدب المؤثّر قد ازدهر فيها خلال تلك الفترة. وقد تمثّل ذلك اللون في الشعر غير المتقّيد، أحياناً، بقواعد إعراب اللغة العربية. وكان من إبرز من اشتهروا فيه عبدالله بن علي بن رشيد وأخوه عبيد[٢].

ومن الواضح أن الأوضاع الاقتصادية لمنطقة جبل شمّر، خلال الفترة التي تتناولها هذه الدراسة، لم تكن متّفقة مع الصورة القاتمة التي رسمها عبدالله بن رشيد في إحدى قصائده بقوله:

لي ديرة ما به حذا البرد والجوع
لولايْ عفّيتَهْ بضرب الهنادي[٣]

ذلك أن الدارس للمنطقة خلال الفترة المشار إليها يلاحظ أن إمكاناتها الطبيعية كانت لا بأس بها، كما يلاحظ أنه كانت توجد فيها وجوه متعددة للنشاط السكاني أسهمت في إيجاد أوضاع اقتصادية غير سيئة. ولعل من أبرز الأمور الجديرة بالبحث في هذا المجال الزراعة والإنتاج الزراعي، الرعي والثروة الحيوانية، التجارة وقوافل الحج، والغزوات.

---

(١) من ذلك **مختصر الجامع الصغير**، الذي كان ملكا لحسن بن حسين بن الشيخ محمد ابن عبدالوهاب. وقد كتب على غلافه ما يلي:

«دخل ها ذا كتاب المبارك في ملك الفقير الحقير إلى الله سبحانه وتعالى عبيد ابن علي ابن رشيد ووقفهو وقف لا يبع ولا يعطا ولا يضهر حايل على طالب العلم في بلده حايل ولا يضهر الى ساير البلدان وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

وعليه ختم عبيد بن رشيد. ويوجد هذا الكتاب في مكتبة آل يعقوب، التي أهديت إلى مكتبة المعهد العلمي في حائل.

(٢) من نماذج شعر عبدالله قصيدة ضمن **نبذة** : ٩٤ ــ ١٠١. أما شعر عبيد فكثير منه منشور في **الأزهار**:٣/٥٧ــ٧٨.

(٣) فهد المارك، **من شيم العرب** : ١/١٩١.

الزراعة والإنتاج الزراعي

من المعروف أن من أهم مقومات الزراعة توفّر الماء، وصلاحية التربة والمناخ، بالإضافة إلى وجود اليد العاملة فيها. وهناك من الروايات ما يفيد بأن هذه المقومات كانت متوافرة، آنذاك، في منطقة جبل شمّر بدرجة قريبة من الكفاية. كان هناك كثير من العيون والآبار في كل من جبلي أجأ وسلمى. لكن المياه خارج هذين الجبلين كانت قليلة نوعا ما [١] . وكان استخراج تلك المياه من الآبار يحتاج إلى مؤونة وجهد متمثّلين في توفير حيوانات ترفع الماء من قاع البئر إلى سطح الأرض وفي توفير يد عاملة توجّه تلك الحيوانات وترعاها. على أن مياه المنطقة كانت، بوجه عام، كافية وكانت من أعذب وأصفى المياه.

أمّا تربة المنطقة فكانت خصبة، وأمّا مناخها فكان مناسباً لكثير من أنواع المزروعات المختلفة[٢] .

وكانت اليد العاملة المطلوبة للزراعة متوافرة في منطقة الجبل. ذلك أن الزراعة من الأمور التي لم تكن مستهجنة من الناحية الاجتماعية لدى الأفراد المنتمين إلى أصول قبلية عربية. بل إن والين قد نصّ على أن من كانوا لا يزالون بدواً في كثير من أوجه نشاطهم كانوا يقومون جزئيا بالزراعة في جبلي أجأ وسلمى[٣] .

وهكذا فإن النتائج المتوقعة لوجود المقوّمات الزراعية المذكورة سابقا بدت واضحة. فقد سبقت الإشارة إلى ما كان في منطقة عقدة بالذات من نخيل جيدة الثمار حين استيلاء عشيرة عَبْدة الشمّرية على هذه المنطقة[٤] . وفي سنة ١١٣١ هـ زار السيد عباس الموسوي حائل ووصفها بأنها «ذات نخيل

---

(١) والين، قصة: ١٧٧.
(٢) المصدر السابق : ١٩٨.
(٣) المصدر السابق : ٨ـ١٩٩.
(٤) انظر صفحة ٤ من هذه الدراسة.

وأشجار وعيون وآبار، وطيور وأزهار وبساتين واسعة وثمار وكأنها روضة من رياض الجنان، فيها من كل فاكهة زوجان».[١] . وقد وصف مؤلف **لمع الشهاب** المنطقة بعد مائة عام من وصف الموسوي لها بقوله:«إنها كثيرة الخير من المزارع والفواكه[٢] .

ولعلّ ممّا يرجّح الباحث صحته من الروايات، بخصوص الزراعة والإنتاج الزراعي في منطقة الجبل، ما ورد في ملاحظات الرحّالة والين الذي أشار إلى أن سكان الجبل كانوا يزرعون النخيل والذرة والدخن والشعير، كما أشار إلى أنهم كانوا يزرعون أنواعا من الفواكه بكمّيات قليلة، وأنهم كانوا يزرعون الخضراوات بكمية أكثر مما في غير هذه المنطقة من بلدان الصحراء العربية التي زارها[٣] .

وسواء كانت كميات الفواكه والخضراوات المنتجة في منطقة جبل شمّر كثيرة أم لا فإن مقدارها لم يكن، فيما يبدو، من الأمور المهمّة جداً لدى السكان آنذاك. ذلك أنه من المرجّح أن غالبيتهم لم تكن تعتمد كثيراً على الفواكه والخضراوات في التغذية لعدم انتشار الوعي الصحي لديها. وكان المهمّ لدى الجميع من الإنتاج الزراعي التمور والحبوب.

والواقع أن أهمية النخيل ونباتات الحبوب المختلفة لم تكن مقصورة على ما لثمارها من دور كبير في تغذية السكان وإنما تجاوزت ذلك إلى أمور أخرى. فقد كان كل جزء من النخلة تخدم غرضاً خاصاً في حياة المجتمع[٤] . وكانت سيقان نباتات الحبوب تستخدم أعلافا فتساعد بذلك ما تنتجه

---

(١) نقلا عن **المعجم الجغرافي** : ١/٣٨٥.
وربما لاحظ الباحث الصورة الشعرية التي طغت على عبارات هذا المؤلف. ومن المحتمل أن مما أوحى إليه بذلك ما لمسه من كرم وجود كان، وما زال، أهل تلك المنطقة يتحلّون بهما.

(٢) **لمع الشهاب** : ١٤٢.

(٣) والين، **قصة** : ١٧٨.

(٤) من ذلك، مثلا، استخدام جريدها في سقوف المنازل، وعمل الحصر من سعفها، والانتفاع بما يبس منها للوقود.

المنطقة من أعلاف لازمة للحيوانات الموجودة فيها، خاصة ما كان من تلك الحيوانات لدى الحاضرة [١].

ويبدو أن منطقة جبل شمّر كانت تنتج من التمور ما يكاد يسد حاجة سكانها. لكن إنتاجها من الحبوب لم يكن، على الأرجح، كافيا لسد حاجة أولئك السكان في أغلب الأوقات [٢] . ومما لا شك فيه أن الحاجة إلى الحبوب ازدادت كثيراً حينما أصبحت هذه المنطقة مركز ثقل سياسي وعسكري بعد منتصف القرن الثالث عشر الهجري. وكان السبب الكبير لازدياد هذه الحاجة متطلبات الضيافة والغزوات التي كان يقوم بها أمراؤها من آل رشيد. ومن هنا ازداد استيراد الحبوب، خاصة الرز، من العراق [٣] .

الرعي والإنتاج الحيواني

كان الرعي يشكل جانباً مهمّاً من جوانب النشاط السكاني الذي تعتمد عليه الحياة الاقتصادية لبادية منطقة جبل شمّر. ومن المعلوم أن ازدهار الحياة الرعوية مرتبط بنزول الأمطار ووفرتها في الدرجة الأولى. فإذا لم تنزل الأمطار وحلّ الجدب تدهورت حالة البادية الاقتصادية، وذلك بتلف بعض ما لديها من ثروة حيوانية. وقد ورد أن الجدب حلّ بمناطق معيّنة من نجد خلال بعض سنوات الفترة التي تتناولها هذه الدراسة [٤] . لكن منطقة جبل شمّر من المناطق التي لم تتأثر بذلك الجدب، فيما يبدو.

وكانت الإبل أهم ثروة لدى القبائل الرحّل، لاعتمادهم عليها في التغذية وفي

---

(١) بعد درس المحصول من القمح والشعير تؤخذ الحبوب منه ويستعمل ما تهشم من سيقانه علفا للحيوانات، ويسمى تبنا. ومن أشهر الأعلاف المنتجة في المنطقة القت (البرسيم).

(٢) وما ذكر عن الإنتاج الزراعي في منطقة جبل شمّر ينطبق، بدرجة كبيرة، على المناطق التي وصل إليها نفوذ الأمير عبدالله بن رشيد، مثل الجوف وتيماء.

(٣) والين، **قصة** : ١٧٨ .

(٤) **عنوان** : ٨٧/٢، ١٠١.

كثير من شؤونهم الاقتصادية والاجتماعية. وكانت منطقة جبل شمّر غنية بها، شأنها في ذلك شأن كثير من المناطق النجدية الأخرى. ولعلّ ذلك مما مكّن عبدالله بن رشيد من إمداد خورشيد بكثير من الإبل التي طلبها منه[١]. وغنى المنطقة بها أدّى، أيضا، إلى تصدير أعداد كبيرة منها إلى الخارج[٢]. وهي وإن كانت أقل شهرة من الإبل العمانية إلا أنها كانت جيدة. وتأتي الأغنام في الدرجة الثانية من حيث الأهمية بالنسبة لبادية المنطقة. لكن أهميتها من حيث التغذية لا تقلّ عن الإبل إن لم تزد عليها. أمّا الخيل فكانت متوافرة عند بادية جبل شمّر بدرجة لا بأس بها. وطبقا لما ذكره والين فإنها كانت من أجود الخيول العربية[٣].

ولم تكن أهمية الإبل والغنم والخيل مقصورة على حياة البادية من سكان جبل شمّر. بل كانت هذه الحيوانات مهمّة لدى الحاضرة. كانت الإبل تستخدم في الزراعة لرفع الماء من الآبار إلى سطح الأرض، وكانت لحومها تسهم إسهاما كبيرا في التغذية. وكانت، أيضا، وسيلة مواصلاتهم في رحلاتهم الطويلة بصفة خاصة. كما كانت تستخدم في الغزوات. وكانت الأغنام مهمّة للسكان الحضر للحومها من جهة ولمنتجاتها من الألبان وغيرها من جهة ثانية. وكان اقتناء الحضر لها على نطاق واسع[٤]. وبما أن الظروف المحيطة بالمنطقة آنذاك، كانت تتسم بالطابع الحربي فإن مكانة الخيل كانت عزيزة لدى السكان، خاصة الأسر الغنية.

وبالإضافة إلى ما تقدم فإنه كانت توجد لدى حاضرة جبل شمّر أبقار. وكانت تستخدم في الغالب لغرضين أساسيين: أحدهما الانتفاع بلبنها

(١) انظر صفحة ٩٣ من هذه الدراسة.

(٢) والين، **قصة**، ١٨٩.

(٣) المصدر السابق : ١٨٨.

(٤) المصدر السابق : ١٨٩. وقد ذكر هذا الرحّالة أمرا لطيفا وهو أن بعض السكان كانوا يضمّون عدداً من الغزلان إلى جانب الأغنام التي يقتنونها. وذلك يوحي بكثرة الغزلان في المنطقة آنذاك.

ومشتقاته، والثاني استخدامها في المجال الزراعي كرفع الماء من الآبار. وكانت توجد لدى هذه الحاضرة حمير تستعمل في المجال الزراعي ونقل الإنتاج إلى الأسواق المحلية، كما تستعمل في التنقلات القصيرة بين قرى المنطقة.

التجارة وقوافل الحج

يلاحظ الباحث ثلاثة جوانب واضحة حينما يحاول أن يتكلّم عن التجارة في منطقة شمّر. الجانب الأول ما كان يوجد من تبادل تجاري بين المنتج والمستهلك من المستقرين في بلدان المنطقة. والثاني ما كان يوجد من تبادل تجاري بين بلد من هذه البلدان وبلد آخر، أو بين حاضرتها وباديتها. والجانب الثالث ما كان قائما من التجارة بين المنطقة ككل وبين المناطق الخارجة عنها.

كان المنتج يبيع إنتاجه بطرق متعددة. منها أن يحمل إنتاجه إلى السوق المحلية فيبيعه إمّا إلى المستهلك مباشرة وإمّا إلى تاجر يبيعه، بدوره، إلى المستهلك. ومنها أن يأتي المستهلك أو التاجر إلى مزرعة المنتج فيشتري منه ما يودّ شراءه. وغالبا ما كان التعامل التجاري بثمن حاضر. لكن كان هناك تعاملٍ تجاري بثمن مؤجل، ومن ذلك أن يدفع المستهلك أو التاجر إلى المنتج مبلغاً مقدماً من المال على أن يقبض عوضا عنه كمية معيّنة من إنتاجه الزراعي بعد استواء ثمرته. وكان المنتج الزراعي يشتري بثمن إنتاجه ما كان يحتاج إليه من حيوانات وأطعمة لا ينتجها ومن ملابس وأشياء أخرى كالقهوة (١) .

ولقد كانت العلاقة بين حاضرة الجبل وباديته ذات منفعة متبادلة . كان منها ما له صبغة اقتصادية بصفة عامة، ومنها ما له سمة تجارية بصفة خاصة. كان الحضر يحتاجون الإبل في كثير من مشروعاتهم، وكان البدو المصدر الأول لها. وكان من الصعب عليهم أن يقوها دائما في البلدان، ولذا كانوا

---

(١) المصدر السابق : ٢٠٢.

يودعونها البدو خلال الأوقات التي لا يحتاجون إليها مقابل أجر محدود. وكان المزارعون الفقراء يستأجرون، أحيانا، إبلا من البدو لمدة فصل الريّ لأنهم كانوا غير قادرين على شرائها. وكان هؤلاء يدفعون الإيجار، في الغالب، كميات معيّنة من إنتاجهم الزراعي[١]. وكما كانت البادية المصدر الأول للإبل فإنها كانت كذلك بالنسبة للأغنام المهمة، كما سبق أن ذكر، في حياة الحاضرة. وهكذا، كان البدو يجلبون ما هم في غنى عنه من حيوانات أو إنتاج لحيوانات، كالسمن والإقط والصوف، ليبيعوه ويشتروا بثمنه ما كانوا يحتاجون إليه من أطعمة، كالتمر والحبوب، أو ملابس وأسلحة وآنية وغيرها. وفي حالات قليلة كان التجار أنفسهم يذهبون إلى مضارب البدو ليبيعوا إليهم بعض السلع، أو ليشتروا منهم بعض ما لديهم من إنتاج حيواني.

ولقد كانت التجارة بين منطقة جبل شمّر وبين المناطق الخارجة عنها من أهم الأسس التي اعتمدت عليها الحياة الاقتصادية لسكان المنطقة[٢]. وكانت هذه المنطقة تتعامل تجاريا مع مناطق وأقطار متعددة. لكن علاقتها التجارية بالعراق كانت أعمق وأوثق من علاقاتها بغيرها. وكانت هذه العلاقة التجارية الخاصة قديمة[٣]. ومن المرجّح أن حجم التجارة بين جبل شمّر والعراق ازداد بازدياد نفوذ عبدالله بن رشيد وقوة إمارته. وعلى هذا الأساس، فإن والين يذكر أن قوافل تجارية كبيرة كانت تذهب من حائل إلى العراق أربع مرات في السنة، وأن قوافل صغيرة كانت تذهب إلى هناك باستمرار. وكانت الإبل أهم بضاعة تصدرها منطقة الجبل إلى العراق، بينما كان أهم شيء تستورده من هناك بضاعة الأطعمة، خاصة الرز[٤].

---

(١) المصدر السابق : ١٧٩.

(٢) Rosenfeld, «The Social of the Military in the Process of State Formation in the Arabian Desert», The Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, vol. 95, Part 1, Jan, 1965: 80-84.

(٣) عنوان : ٩٨/١

(٤) والين، قصة : ١٨٧

ولا شك أن الموقع الجغرافي لمنطقة جبل شمّر كان له أثر كبير في نموّ اقتصادها ورخاء معيشة سكانها. فهي متوسطة بين شمال ووسط الجزيرة العربية، ومتوسطة تقريبا بين البحر الأحمر والخليج العربي. وهي، فوق هذا وذاك، واقعة في طريق الحج المشهورة الممتدة من العراق إلى الأماكن المقدسة في الحجاز. ولهذه المزايا الجغرافية من جهة، ونموّ قوة المنطقة في عهد الأمير عبدالله بن رشيد وإنشغال سكانها، خاصة شمّر عماد جيشه، بحروبه مع خصومه من جهة ثانية فإن أنظار التجار من مناطق مختلفة اتجهت إلى عاصمتها حائل. وكان من بين أولئك تجار من العراق والمدينة المنوّرة والقصيم[١].

ولقد كان للحج أهمية اقتصادية بالنسبة لسكان منطقة جبل شمّر. كانت قافلة حجاج بلاد ما بين النهرين وفارس تسير من مشهد علي، أو الكوفة القديمة، صوب هذه المنطقة. فإذا وصلتها استراحت في حائل، ثم واصلت سيرها إلى المدينة المنوّرة أو مكة المكرمة[٢]. وكانت استفادة السكان منها مختلفة الجوانب. كانت القافلة تستأجر منهم حرّاسا وأدلّاء[٣]. وكانت تشتري منهم إبلا بدلا من الإبل المتعبة معها أحيانا. وكانت تشتري من المنطقة ما كانت تحتاج إليه من أطعمة ومعدات للسفر. وفي بعض الأحيان كان بعض أفرادها يبيعون على السكان أشياء ثمينة. وإلى جانب ذلك كله كانت إمارة الجبل تفرض على أولئك الحجاج مبالغ معيّنة مقابل مرورهم بأراضيها. وهذه المبالغ وإن ذهبت إلى الأمراء إلا أن آثارها تنعكس على السكان، جزئيا، بطريقة غير مباشرة.

---

(١) المصدر السابق : ٢٠١.

(٢) المصدر السابق : ٢٠٠. وكانت قافلة الحج قديما تمر بفيد، التي هي ضمن منطقة إمارة جبل شمّر.

(٣) ومما لاحظه الرحّالة والين في هذا الصدد أن أكثر الأدلّاء كانوا من حاضرة جبل شمّر لا من باديتها. انظر **قصة** : ١٧٩.

الغـــزوات

والغزوات، من الناحية الاقتصادية، سلاح ذو حدين. فهي قابلة للنجاح وتحقيق مكاسب مادية، وهي قابلة للفشل وفقدان أموال تذهب إلى الخصوم المنتصرين. ولا شك أن للقيادة والظروف المحيطة بها دوراً كبيراً في تحقيق النصر أو حدوث الفشل. ولقد توفرت في الأمير عبدالله بن رشيد القيادة المؤهلة، وتهيأت له الظروف المناسبة فكانت أكثر غزواته موفقة. وكانت مكاسب هذه الغزوات عائدة إليه بالدرجة الأولى، لكن قسما منها كان عائدا إلى أتباعه. فحينما تنتهي الغزوة بالانتصار كان يدفع لكل فرد من أفراد الجيش الغازي نصيبه من الغنيمة طبقا لما يراه الزعيم(١). وكان لهذه المكاسب، بصفة عامة، أثر اقتصادي على جميع سكان منطقة جبل شمّر. وكانت غزوات الأمير عبدالله بن رشيد كثيرة(٢) . ولذلك فقد تركت أثرها الإيجابي في اقتصاد سكان إمارته. ولعلّ من أوضح الدلائل على ذلك أن سكان جُبَّة، مثلا، غنموا من قبيلة الشرارات خلال صيف واحد حوالى ألفي بعير(٣) .

---

(١) والين، **قصة** : ١٧٩. ويذكر هذا الرحّالة أن السكان يشكون من عدم تمشي زعمائهم، في هذه القضية، مع أوامر الدين، ولا مع عرفهم القبلي القديم.

(٢) **الفاخري** : ١٣٥ .

(٣) والين، **قصة** : ١٦٣ .

الفصل السادس

علاقة عبدالله بن رشيد بالقوى المختلفة

منذ تعيين عبد الله بن رشيد أميراً على جبل شمّر من قِبَل الإمام فيصل بن تركي حتى وفاته شهدت الرياض، قاعدة الحكم في نجد آنذاك، تعاقب حكومات اختلفت علاقة بعضها بالمصريين عن بعض، كما اختلفت علاقة أمير الجبل ببعضها عن علاقته بالبعض الآخر. ولقد لوحظ جزء من ذلك أثناء استعراض الحوادث التي مرت بعبدالله بن رشيد حتى استقرار الإمارة له على الجبل. ومن الواضح أن علاقة عبدالله بفيصل بن تركي كانت تختلف عن علاقته بغيره من الحكام الذين استولوا على الرياض. ومن هنا، فإنه من المستحسن الكلام عن علاقته بهؤلاء قبل الكلام عن علاقته بذلك الإمام.

علاقته بالمصريين وعبدالله بن ثنيّان

سبق أن أشير إلى اتفاق عبدالله بن رشيد مع خورشيد باشا في المدينة المنوّرة، وإلى ما حدث له بعد ذلك الاتفاق حتى تسلّمه مقاليد الأمور في حائل. كما سبق أن ذكر إرسال عبدالله لعدد كبير من الإبل إلى خورشيد مع الفرقة العسكرية التي رافقته من المدينة. وقد ظل عبدالله في طليعة من كانوا يمدّون القائد المذكور بالإبل اللازمة لتنقلات جيشه. فقد طلب منه خورشيد إرسال ألفي بعير من القبائل القاطنة حول الجبل، خاصة شمّر وعنزة. ومن الملاحظ أن أكثر من ثلاثة أرباع هذا العدد وصل إلى خورشيد

أو ممثليه على دفعات ما بين الثاني عشر من ذي القعدة سنة ١٢٥٣ هـ والخامس عشر من شهر محرم من السنة التالية. وكان بعض هذه الدفعات مرسلة مع أخي عبدالله، عبيد بن رشيد، وبعضها الآخر مع زعماء غيره، مثل خالد بن مجلاد أحد رؤساء قبيلة عنزة[(١)] .

ولقد كان تحرك خورشيد في مسيرته من غرب الجزيرة إلى وسطها بطيئا نوعا ما. فقد توجه من المدينة المنوّرة في غرة ذي الحجة سنة ١٢٥٣ هـ، لكنه لم يصل إلى عنيزة إلا بعد ذلك بثلاثة شهور. وقد استقام في هذه البلدة من بداية شهر ربيع الأول سنة ١٢٥٤ هـ حتى نهاية شهر رجب من تلك السنة، حيث سافر منها إلى الرياض[(٢)] .

ويبدو أن من بين أسباب تحرّكه على ذلك النحو محاولته إيجاد جوّ من التفاهم مع سكان المناطق التي مر بها ليقبلوا ما كان يرمي إليه من تعزيز مكانة حاكم مصر ومدّ نفوذه في البلاد. ولقد نجح في ذلك نجاحاً كبيراً، حيث وفد إليه كثير من زعماء المناطق النجدية المختلفة، حاضرة وبادية، مبدين ولاءهم له واستعدادهم لخدمته. وكان في مقدمة من وفد إليه من رؤساء القبائل سلطان بن ربيعان أحد زعماء قبيلة عتيبة، ومحمد بن فيصل الدويش رئيس قبيلة مطير[(٣)] ، وفهيد الصييفي رئيس قبيلة سبيع[(٤)] .

وحينما رتّب عبدالله بن رشيد أموره في منطقة جبل شمّر، واطمأن إلى رسوخ مركزه هناك رأى أن يقوم بزيارة لخورشيد الذي كان قد وصل إلى عنيزة. وطبقا لما ذكره خورشيد في رسالته إلى حاكم مصر فإن ابن رشيد قد وفد إليه «بمائتي هجّان ومائتي راجل» ومعه ألف بعير جمعها من القبائل التابعة له وأتى بها لخدمة الجيش إن احتاجها[(٥)] . وقد رحّب به خورشيد —

---

(١) محفظة ٢٦٤ عابدين (٩٤).

(٢) المصدر السابق : **عنوان** : ٢/١ــ١٠٣.

(٣) محفظة ٢٦٤ عابدين (٢٦١): **عنوان** : ١١٣/٢.

(٤) **عنوان** : ١٠٣/٢.

(٥) محفظة ٢٦٤ عابدين (٢٦٤)

كما كان متوقعا — وأغدق عليه الهدايا. وكان معه حين انصرف من عند ذلك القائد أهل خمس وأربعين مطيّة، ومعهم «شيء كثير من اللباس والسلاح والركائب النجيبة». لكن عبدالله بن رشيد قام بما جعل أمير بريدة، عبدالعزيز بن محمد، يباغته بهجوم يستولي به على كثير مما كان معه.[١] . فعاد ابن رشيد إلى عنيزة، حيث عوّضه القائد المصري عن كثير مما فقده[٢] .

وقد بلغ من اهتمام خورشيد بعبدالله بن رشيد وتقديره له أن اقترح على حكومته أن تعيّن له مرتبا شهريا مناسبا، معلّلا ذلك بأمرين :

أحدهما : أن دخل عبدالله من زكاة منتجات منطقته لم يكن كافيا لسد احتياجاته. والثاني أنه ممن كانوا يساعدون قادة الحملة في شؤون نجد، وممن يتوقع أن تستمر مساعدتهم لأولئك القادة في المستقبل[٣] .

وعلى أية حال، فإن المصادر المختلفة لا تذكر مساعدة عبدالله بن رشيد لخورشيد في المعارك التي دارت بينه وبين الإمام فيصل بن تركي في منطقة الدلم الواقعة جنوب الرياض، والتي كانت نتيجتها استسلام ذلك الإمام لخورشيد. وربما كان ذلك عائدا إلى اقتناع الأخير بأن ما كان معه من قوات كاف لهزيمة خصمه، أو إلى اقتناعه بضرورة وجود عبدالله بن رشيد في منطقته ليساعد في استمرار تأمين خطوط مواصلات الحملة. وربما كان عبدالله هو الذي أقنع خورشيد بضرورة وجوده في جبل شمّر هروبا من انضمامه إليه في معركة مواجهة مع الإمام فيصل.

ومن الواضح أن العلاقة بين عبدالله بن رشيد وبين خورشيد، والتي كان مظهرها الودّ والانسجام، لم يطرأ عليها تغيير طيلة المدة التي قضاها

(١) انظر صفحة ١٠٤ — ١٠٥ من هذه الدراسة.

(٢) **عنوان** : ٢/٢—١٠٣.

(٣) محفظة ٢٦٤ عابدين (٢٦٤). وقد ذكر في رسالة خورشيد أنه كان يصرف لعبدالله بن رشيد ثلث زكاة جبل شمّر. كما ذكر في أسفلها أنه قد عيّن له مرتب شهري قدره خمسمائة قرش. ولعل في الرقم الأخير خطأ إذ يبدو قليلا.

خورشيد في نجد. ولعلّ مما يبيّن استمرارها على هذا النحو أنه حين تقررت مغادرة ذلك القائد المصري من المنطقة سنة ١٢٥٦ هـ كان عبدالله بن رشيد في مقدمة من اتجه إليهم نظر القائد المذكور ليساعده في تنفيذ المغادرة. فقد أرسل خورشيد إليه محمد بن أحمد السديري وطلب منه أن يمدّه بركائب لرحيله. وكان أن أكرم أمير جبل شمّر مثواه وأعطاه سبعمائة بعير[١] . وربما كان عبدالله بن رشيد في قرارة نفسه ينتظر ذلك اليوم الذي يرى فيه رحيل خورشيد ومن معه من نجد. ومن هنا اجتمع لديه عاملان: الخوف من عدم تعاونه مع القائد المصري، والسرور بمغادرته. لذلك لم يكن غريبا أن يبذل ما كان يستطيعه ليهيىء سرعة تلك المغادرة.

وإذا كان ذلك هو مظهر العلاقة التي كانت موجودة بين عبدالله بن رشيد وبين خورشيد باشا فإن علاقة عبدالله بخالد بن سعود، الذي كان محسوبا على الحكم المصري في المنطقة، كانت تتّسم بالمجاملة. من ذلك — مثلا — أن عبدالله وفد إلى خالد في شقراء، بعد وداع الأمير للقائد المصري خورشيد باشا، ورافقه حتى وصل إلى الرياض[٢] . لكن انسحاب خورشيد من نجد قد ترك خالد بن سعود في موقف لا يستطيع معه أن يتصرّف في شؤون كثير من المناطق التابعة له من الناحية الرسمية. وفي مقدمة هذه المناطق ما كان منها بعيدا عن العاصمة مثل منطقتي جبل شمّر والقصيم. وعلى هذا الأساس فلم يكن مستغرباً أن تقوم حرب بين هاتين المنطقتين سنة ١٢٥٧ هـ دون أن يكون لخالد بن سعود، بصفته الحاكم العام للبلاد كلها، أية قدرة على التدخّل في موضوعها[٣] . بل إن ضعف خالد قد بدا أكثر وضوحا أمام عبدالله بن ثنيّان آل سعود، الذي ثار عليه في

---

(١) عنوان : ١١٣/٢ .

(٢) المصدر السابق : ٢/ ١١٤ — ١١٥

(٣) عن تفاصيل هذه الحرب انظر صفحة ١٠٥ — ١٠٩ من هذه الدراسة.

نفس هذه السنة. وقد وقف عبدالله بن رشيد ـــ كما وقف أكثر زعماء نجد ـــ على الحياد في الصراع الذي دار حول السلطة بين الأميرين السعوديين : خالد وعبدالله.

ورغم أن ابن بشر ذكر، بعبارة عامة، أن أمراء البلدان وفدوا إلى عبدالله بن ثنيان فور استيلائه على الرياض، وأن الوفود تتابعت إليه سنة ١٢٥٨ هـ فإنه من المرجّح أن أمراء القصيم وجبل شمّر لم يكونوا من بين الوافدين إليه، ولا من بين من أعلنوا له الولاء[١] . فبالإضافة إلى عدم نص المؤرخ على ذلك فإن في كلامه، في موضعين آخرين من كتابه، ما يدلّ على عدم دخول المنطقتين المشار إليهما تحت نفوذه. فهو يقول: إن عبدالله بن ثنيان أمر، سنة ١٢٥٨ هـ، على أهل نجد بالغزو فسار معه أهل سدير والعارض وجميع النواحي إلا أهل القصيم وأهل الجبل[٢] . ويقول: إن عبدالعزيز بن محمد، أمير بريدة، حين انطلق فيصل بن تركي من جبل شمّر لمحاربة عبدالله بن ثنيان، كتب إلى الأخير يدعوه إليه، «وأعطاه العهود والمواثيق انك تقبل إلينا ونحن لك سامعون ومطيعون، ومعك محاربون[٣] ». وفي هذه العبارة ما يشير إلى أن السمع والطاعة لعبدالله بن ثنيان لم يكونا موجودين قبل ذلك.

علاقته بالإمام فيصل بن تركي

وفي بداية سنة ١٢٥٩ هـ خرج فيصل بن تركي آل سعود من مصر، واتجه إلى جبل شمّر، يحدوه الأمل في استعادة حكمه على البلاد[٤] . ولم يكن

(١) **عنوان** : ١٢٣/٢ و١٢٧ .
(٢) المصدر السابق : ١٢٤/٢ .
(٣) المصدر السابق : ١٣٠/٢ .
(٤) يلاحظ أن ابن بشر ذكر في هذه المناسبة أن فيصل بن تركي هرب من حبسه عن طريق نزوله بحبال من خلال فرجة ترتفع عن الأرض أكثر من سبعين ذراعا. انظر **عنوان**: ١٢٩/٢ . لكنه قال عنه في موضع آخر : إن المسؤولين المصريين «أنزلوه في بيت، وجعلوا عنده حرسا=

مستغربا ولا غير متوقع أن يجد فيصل كل ترحيب وتأييد لدى أمير الجبل، عبدالله بن رشيد. فالصداقة بينهما قديمة ومتينة. وتبادل المنافع السياسية بينهما قد مر بتجربة ناجحة (١). والتقاليد العربية تحتّم على عبدالله أن يبذل كل ما يستطيع للوقوف بجانب من قصده. والأمير عبدالله كان في وضع قويّ من الناحيتين السياسية والعسكرية، خاصة بعد انتصاره العظيم في معركة بقعاء، التي رفعت سمعته كثيرا في أنحاء المنطقة. ولذلك كان في إمكانه أن يعمل الشيء الكثير من أجل صديقه وضيفه فيصل بن تركي. وبالإضافة إلى ما تقدم فإنه لم يكن لعبدالله بن ثنيان على منطقة جبل شمّر نفوذ، كما ذكر سابقا.

وهكذا أسرع عبدالله بن رشيد إلى استقبال فيصل بن تركي، وبايعه بالإمامة. وانطلق يدعمه بكل إمكاناته ضد عبدالله بن ثنيان. وسار فيصل من الجبل نحو الرياض وكثير من خطواته تتمّ بمشورة عبدالله بن رشيد. وكان النصر في نهاية المطاف للإمام فيصل بن تركي، وذلك في نفس السنة المذكورة سابقا. هذا وقد لعب عبيد بن رشيد دورا بارزا في أثناء زحف

= يحفظونه... وكان يتردد إليه كثير من أهل مصر إذا كان في أحد منهم ألم وحمّى أو غير ذلك، يأتونه يقرأ عليهم. وكانوا يرون أثر الشفاء من قراءته ودعائه. ومن أجل ذلك ازداد عندهم تكريما وتعظيما». **عنوان**: ١٠٧/٢. ولو قُبل كلامه الأخير لكان من الصعب الجمع بين كون فيصل محبوسا في مكان ترتفع إحدى فرجه عن الأرض أكثر من سبعين ذارعا وبين كونه منزلا في بيت كان يتردد إليه فيه كثير من أهل مصر.

لكن من المرجّح أن فيصلا خرج من مصر بترتيب من بعض المسؤولين هناك. وكان هؤلاء يرون أنه من المفيد إرساله إلى نجد ليحارب ابن ثنيان، الذي كان صلبا ضد المصريين. فإن هو نجح ضد ابن ثنيان فإنهم، على الأقل، ينتقمون به ممن قسا على بقية جنودهم في نجد. وإن فشل فإنهم لم يخسروا شيئا لأنه سيغزو وينفق على نفسه.

(١) من ذلك خدمة عبدالله لفيصل في قضية مشاري بن عبدالرحمن وتعيين فيصل لعبدالله في إمارة الجبل.

الإمام إلى الرياض حتى استولى على مقاليد الأمور فيها. فقد كان مع جلوي ابن تركي، ومعهما بعض الأتباع، بمثابة طليعة تذلّل بعض العقبات أمام الجيش المرافق للإمام. وقد بلغ دور عبيد درجة جعلت عبدالله بن ثنيان، بعد أن حوصر في الرياض، يحاول أن تتم المصالحة بينه وبين فيصل بن تركي على يديه[1].

وقد ظلت العلاقة بين الإمام فيصل بن تركي وبين الأمير عبدالله بن رشيد قوية ممتازة. وكانت في حقيقة الأمر علاقة خاصة تختلف عن أية علاقة كانت قائمة بين ذلك الإمام وبين أمراء المناطق الأخرى. لقد جمعت بين مشاعر الودّ والصداقة التي يكنها كل واحد منهما للآخر وبين الشعور بأن كلا منهما قد خدم صاحبه خدمة جليلة. لقد لقي عبدالله من الإمام تركي، أبي فيصل، ترحيبا كان مؤهلا له. ولقي من فيصل، أثناء حياة أبيه، صداقة ومكانة كان جديرا بهما. وحين حدث ما حدث من مشاري بن عبد الرحمن ضد الإمام تركي كان عبدالله من أكبر العقول المدبّرة وأجرأ القادة المنفّذة للتغلب على تلك المصيبة حتى تسلّم فيصل مقاليد الأمور في الرياض. وكان مجيء عبدالله إلى إمارة بلدته، التي كان قد أخرجه منها أميرها بالقوة، يعود أساسا إلى قرار الإمام فيصل بتوليته تلك الإمارة. ولقد كان للحملة المصرية ضد هذا الإمام ظروفها الخاصة التي فرضت على عبدالله أن يتّخذ منها موقفا معينا. كان أول أمير نجدي يفقد إمارته بواسطتها في بداية الأمر. لكنه اتصل بخورشيد باشا وتفاوض معه فيما بعد. على أن هذا الاتصال وذلك التفاوض قد حدثا في وقت بدا لكثير من الناس، ومن بينهم عبدالله بن رشيد، أنه من المجازفة الفاشلة مقاومة الحملة المصرية. صحيح أن عبدالله ظل على علاقة ظاهرها الودّ مع خورشيد في وقت كان قد اتضح فيه أن هذا الأخير كان مخادعا ومحاربا للإمام فيصل. لكنه من المرجح أن

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في **عنوان** : ٢/١٢٩ــ١٣٣، وفي **نبذة** : ٤١ــ٤٨.

عبدالله بن رشيد قد رأى أن من المصلحة له ولصديقه فيصل أن يكون هو على إمارة الجبل بدلا من خصومه. وذلك ما وافى به القدر على أية حال. فقد كان الجبل، كما سبق أن ذكر، أول وأهم قاعدة انطلق منها فيصل بن تركي بعد عودته من مصر لاستعادة حكمه في سائر مناطق نجد. ومن هنا فإن عبدالله بن رشيد كان شاهداً ومساعداً على بداية حكم فيصل في فترتيه الأولى والثانية. وكما سار مع فيصل من المنطقة الشرقية حتى قضى على مشاري ابن عبدالرحمن واستلم مقاليد الأمور في الرياض انطلق معه من جبل شمّر حتى استسلم له عبدالله بن ثنيان وتربّع على كرسي الحكم في تلك المدينة.

وإذا أضيفت العوامل السابقة إلى ما كان يتمتع به عبدالله بن رشيد من قوة، وما تتصف به بلاده من بعد جغرافي نسبي عن الرياض فإنه من المرجّح أن نفوذ الإمام فيصل في جبل شمّر وما حوله كان يقل كثيرا عن نفوذه في المناطق الأخرى. كان عبدالله بن رشيد يعترف رسميا بالسيادة العليا لفيصل على منطقته، وكان بعض قضاة هذه المنطقة يرسلون من قِبَل حكومة الرياض(١). لكن عبدالله بن رشيد كان يتصرّف بنوع من الاستقلال الذاتي الذي لم يكن غيره من أمراء المناطق التابعة لهذا الإمام يملكونه أو يحلمون بالوصول إليه.

وكان من مظاهر ما سبق ذكره أمران: أحدهما يتعلّق بالغزو، والثاني يتّصل بالزكاة. فمن الملاحظ أن مساهمة عبدالله بن رشيد في غزوات الإمام فيصل، بعد استيلائه على الرياض، كانت أقل من مساهمة المناطق الأخرى التابعة لذلك الإمام. فقد قام فيصل بن تركي بأربع غزوات، زمن إمارة عبدالله، لم يشترك أهل جبل شمّر إلا في غزوة واحدة منها(٢). على أنه ليس

---

(١) عنوان: ١٤٧/٢.

(٢) عنوان: ١٤٠/٢، ١٤٣، ١٤٥ و١٤٧.

من المؤكد ما إذا كان عدم اشتراكهم في بقية الغزوات ناتجا عن عدم الحاجة إليهم أم ناتجا عن انشغالهم في حروب مع خصومهم من القبائل القريبة من منطقتهم، خاصة قبيلة عنزة. فقد قال ابن بشر: إنه كان لعبدالله ابن رشيد معها محاربات، وإنه «أوقع بهم عدة وقائع[١]» لكنه لم يذكر أية تفصيلات عن تلك المحاربات والوقائع وأزمنة حدوثها، باستثناء معركة بقعاء التي لم تكن موجهة إلى هذه القبيلة بصفة رئيسية[٢].

لكن ما هو أهم وأوضح مما سبق ما يلاحظه الدارس لتاريخ تلك الفترة من الحرية النسبية لعبدالله بن رشيد في تحركه العسكري ضد خصومه، خاصة أولئك الموجودين في المناطق الواقعة شمال جبل شمّر. وهو وإن كان أحيانا يشنّ الحروب باسم الإمام فيصل[٣] لكن من المرجّح أنه كان، في الحقيقة، يتصرّف بنوع كبير من الاستقلال. بل إن نشاطه العسكري ضد المناطق الواقعة جنوب إمارته، والتابعة رسميا للإمام فيصل، لم يكن خاليا من تلك الحرية النسبية. فهو إن ترك مهاجمة هذه المناطق فقد تركها مجاملة لذلك الإمام أكثر مما تركها خوفا منه، كما يتّضح من قصيدة أخيه عبيد التي يخاطب فيها ابن سليم في عنيزة بقوله:

لولا مدارنا قريب ابن عيّاف
يسقف عليك العجّ مثل المقاصير[٤]

على أن ذلك الموقف الرشيدي المتحفظ لم يستمر طويلا، إذ قام عبيد بمهاجمة عنيزة سنة ١٢٦١ هـ، كما سيتّضح عند تناول علاقة عبدالله بن رشيد

(١) المصدر السابق : ٢/١٤٩.

(٢) عن هذه المعركة انظر صفحة ١٠٥ـــ١٠٩ من هذه الدراسة.

(٣) Wallin, «Notes taken During a Journey through part of Nothern Arabia in 1848», **The Journal of the Royal Geographical Society,** XX (1850), p. 324.

(٤) **الأزهار** : ٣/٦٢. ويقصد بقريب ابن عيّاف الإمام فيصل بن تركي.

بالقصيم. وبالإضافة إلى الحرية النسبية لعبدالله في تحركه العسكري فإنه كان يحتفظ بأكثر الغنائم المترتّبة على ذلك التحرك[1]. بل إنه كان يحظى، أحيانا، بدعم من الحكومة المركزية للتغلب على أولئك الخصوم[2].

أمّا بالنسبة للأمر الثاني، وهو الزكاة، فمن الملاحظ أن المصادر الأساسية لتاريخ تلك الفترة لم تنص على أن زكاة منطقة جبل شمّر كانت تذهب إلى خزينة الدولة المركزية في الرياض[3]. صحيح أن ابن بشر ذكر أن الإمام فيصل بن تركي أرسل عمّالا إلى جميع عربان نجد لقبض الزكاة، كما أرسل عمّالا إلى نواحيها لخرص الثمار[4]. وقد يفهم بعض الباحثين من هذه العبارة دخول منطقة جبل شمّر ضمن هذا التعميم. لكنه من الملاحظ أن العبارة أتت بصورة إجمالية لا تقطع بدخول المنطقة المذكورة. وقد ورد في رسالة خورشيد إلى حاكم مصر أن عبدالله بن رشيد كان يصرف له ثلث زكاة جبل شمّر، طبقا للعادة الجارية[5]. ومن المحتمل أن هذه «العادة الجارية» هي النظام الذي كان متّبعا في علاقة أمير جبل شمّر بحكومة الرياض فيما يتعلّق بالزكاة قبل سنة ١٢٥٤ هـ. وإذا قُبِل هذا الاحتمال فهل اتُّبع النظام المذكور بعد عودة الإمام فيصل إلى الحكم سنة ١٢٥٩ هـ واستمر، كما هو، حتى وفاة عبدالله بن رشيد عام ١٢٦٣ هـ أو أن الظروف

---

(١) والين، **قصة** : ١٨٢.

(٢) **عنوان** : ١٤٩/٢.

(٣) ورد في تعليق لفهد المارك، نقلا عن رواية سلمان بن رشدان، أن كلا من عبدالله بن رشيد وابنه طلال كان يذهب بزكاة بلدهما إلى الرياض. انظر **نبذة** : ٨٩ هامش ١. لكن لعل الراوي قصد أنهما كانا يذهبان بهدايا إلى الإمام فيصل في الرياض. على أن ابن بشر، المعاصر لتلك الأحداث، لم يشر إلى أن عبدالله نفسه قد ذهب إلى الإمام المذكور بزكاة ولا هدية. وإنما أشار إلى أن ابنه متعباً ذهب بهديةإلى الإمام نيابة عنه. انظر **عنوان** :١٤٥/٢.

(٤) **عنوان**: ١٤٦/٢ و١٤٩.

(٥) محفظة ٢٦٤ عابدين (٢٦٤).

الجديدة التي جعلت إمارة الجبل، آنذاك، أقوى مما كانت عليه قد غيّرت ذلك النظام؟ الرسالة المشار إليها ليس فيها ما يجيب عن هذا التساؤل.

ولقد أشار بلجريف، في محاولة واضحة للتقليل من شأن عبدالله بن رشيد، إلى أن هذا الأمير كان طوال حكمه يدفع مبلغا من المال إلى فيصل(١) . لكن ذلك، أيضا، ربما فُسّر على أنه هدايا. وقد نص الرحّالة والين على أن سكان الجوف كانوا يدفعون الزكاة إلى ابن رشيد وأنه كان ينفقها كما يشاء(٢) . كما نص دوتي على أن عبدالله بن رشيد كان يأخذ الزكاة من القبائل والقرى التابعة له ولا يبعث شيئا منها إلى الرياض(٣) .

وهكذا يبدو من مقارنة المصادر أن الأمير عبدالله بن رشيد كان، على الأرجح يحتفظ بزكاة منطقته، أو على الأقل كان يحتفظ بجزء كبير منها. لكنه كان يرسل إلى الإمام فيصل هدايا، في مقدمتها الخيول الأصيلة والإبل النجيبة(٤) .

ومن الممكن إضافة مسألة أخرى إلى ما تقدم ذكره لإيضاح ما كان يتمتع به الأمير عبدالله بن رشيد من وضع خاص لم يكن يتمتع به غيره من أمراء المناطق الأخرى التابعين للإمام فيصل. فقد كانت لعبد الله اتصالات خارجية مباشرة مع حاكمي مكة المكرمة والمدينة المنوّرة، ومع كل من حاكم مصر ووالي بغداد. وكان من مظاهر تلك الاتصالات إهداؤه إلى هؤلاء المذكورين خيلا في مناسبات مختلفة(٥) .

---

(١) بلجريف : ١٢٦/١.

(٢) والين، **قصة** : ١٤٧ و١٤٩.

(٣) **Doughty, Travels in Arabia Deserta, London, 1936:2/43-6.**
وسيشار إليه، مستقبلا،باسم مؤلفه، دوتي، فقط.

(٤) **عنوان** : ١٤٥/٢؛ **دوتي** : ٤٥/٢ــ٤٦.

(٥) والين، **قصة** : ١٨٨.

علاقته بالقصيم

من الملاحظ، بصفة عامة، أن العلاقات بين المناطق أو القبائل المتجاورة تتصف بالتوتّر نتيجة المنافسة والتطلّع إلى ترسيخ القوة الذاتية، أو نتيجة الصراع على موارد الحياة الاقتصادية. والعلاقة بين منطقة الجبل ومنطقة القصيم، زمن الأمير عبدالله بن رشيد، لم تخرج عن القاعدة العامة التي سبق ذكرها. بل إن أسباب التوتّر بين هاتين المنطقتين لم تقتصر على التنافس بينهما بصفتيهما الحضريتين فقط، وإنما أضيف إليها أحيانا عامل آخر له أهميته الخاصة، وهو الصراع القبلي بين قبيلة شمّر، التي ينتمي إليها ابن رشيد، وبين قبيلة عنزة التي كانت حليفة لأهل القصيم آنذاك. ولقد سبقت الإشارة إلى ما كان بين شمّر وعنزة من حرب كان من نتائجها توتّر العلاقة بين أمير الجبل صالح بن عبدالمحسن بن علي وبين عبدالله بن رشيد[1]. وبعد أن تولّى هذا الأخير إمارة الجبل حدث من الأمور ما أدّى إلى صراع مرير بين منطقتي جبل شمّر والقصيم. كان أن أتى أمير عنيزة مع الفرقة التي بعثها خالد بن سعود وإسماعيل أغا للاستيلاء على جبل شمّر، ومع أن ذلك الأمير لم يكن له، فيما يبدو، خيار في هذه القضية فإنه من المرجّح أن مجرد مسيره مع الفرقة المذكورة قد ساء الأمير عبدالله بن رشيد. وكان بعض مؤيدي آل علي الفارين من الجبل قد التجأوا إلى بريدة. ورغم أن أمير الجبل كان يدرك أن التقاليد العربية كانت تحتم على أمير بريدة أن يقبلهم ويوفر لهم الحماية فإنه، فيما يظهر، لم يكن راضيا عن موقف ذلك الأمير. ولهذا فإنه حاول بطريقته الخاصة أن يقضي على واحد منهم في بريدة ذاتها. وكان أن فشلت خطته وقتل اثنان ممن أرسلهم لهذه المهمّة وقبض على الثالث. ولم يكن بوسع أمير بريده، عبدالعزيز بن محمد آل عليّان ، أن يترك هذا العمل دون تصرّف حازم. فما كان منه إلا أن فاجأ عبدالله بن رشيد ومن معه

---

(١) انظر صفحة ٢٤ من هذه الدراسة.

بهجوم نتج عنه قتل ستة رجال ممن كانوا مع عبدالله وأخذ كثير مما كان معه من لباس وسلاح وركائب[١] . وكان لهذه الحادثة أثرها في نفس أمير جبل شمّر. وكان رد فعله عليها أن أقدم، فيما بعد، على أخذ إبل تابعة لأهل بريدة [٢] .

وهكذا بدأ الاحتكاك بين منطقتي الجبل والقصيم. وحينما تقابل الأميران، عبدالعزيز بن محمد آل عليّان وعبدالله بن رشيد، عند خالد بن سعود في الرياض سنة ١٢٥٦ هـ حدث بينهما نزاع وجدال، وعادا من هناك إلى بلديهما وفي نفس كل واحد منهما على الآخر من الغضب ما فيها. ولم يمض عام واحد على تلك المقابلة إلا وقد انفجر الخلاف بينهما إلى صراع بين منطقتيهما في معركة بقعاء المشهورة، التي عبّر ابن بشر عن هولها بقوله: «الوقعة العظمى والحادثة الكبرى[٣]».

بعد عودة الأميرين المذكورين إلى بلديهما قام رئيس الدهامشة من قبيلة عنزة، غازي بن ضبيان، المتحالف مع أهل القصيم بغارة على عشيرة ابن طوالة من قبيلة شمّر في أرض الجبل. وقد تمكن غازي من أخذ كثير مما كان مع هذه العشيرة من إبل لأهل تلك المنطقة. ولا شك أن هذه الغارة كانت قد تمت بتشجيع من أمير بريدة، إضافة إلى الصراع القبلي الذي كان موجودا بين قبيلتي عنزة وشمّر. وقد جاء رد فعل الأمير عبدالله بن رشيد على تلك الغارة كما كان متوقعا. فقد قام بمهاجمة غازي بن ضبيان، وأخذ منه إبلا كثيرة. وهنا صمّم أمير بريدة على الانتقام لما حدث، ونجح في تحويل هذه المسألة إلى قضية إقليمية بين منطقتي الجبل والقصيم. فأقنع أمير عنيزة وغيره من زعماء القصيم بالمسير إلى جانبه لمحاربة أمير منطقة جبل شمّر. وهكذا سار أهل القصيم نحو الجبل.

---

(١) **عنوان**: ٢/١٠٢ـــ١٠٣. **مقبل الذكير** : ٦٩.

(٢) **عنوان** : ٢/٢١٥.

(٣) المصدر السابق : ٢/١١٧.

وكما تحولت المسألة السابقة إلى قضية إقليمية عامة لأهل القصيم فقد أصبحت، أيضا، قضية عامة لقبيلة عنزة الموجودة حول منطقتهم. ذلك أنه لم يسر مع أهل القصيم غازي بن ضبيان بأتباعه من الدهامشة فقط، وإنما سار معهم بجانبه قاعد بن مجلاد وأتباعه وابن صبر من السلاطين والصقور من قبيلة عنزة. وقد أغار الجميع على وجعان الراس من قبيلة شمّر، وأخذوا منه أموالا كثيرة من الإبل والغنم والأثاث. وقد رأى أمير عنيزة، يحيى بن سليم، أن يكتفي أهل القصيم وحلفاؤهم من عنزة بما أحرزوه من نصر، أو على الأقل بما أظهروه للخصوم من قوة، ويرجعوا إلى بلدانهم. لكن أمير بريدة، عبد العزيز آل عليّان، أقسم أن لا يرجع إلى بلده إلا بعد أن يقاتل عبدالله بن رشيد في مقر إمارته، حائل. فاضطر يحيى إلى متابعته، وسار الجميع حتى وصلوا إلى بقعاء[1] . ومن ناحية أخرى فإن عبدالله بن رشيد قد رأى أن ذلك الزحف خطر كبير يهدد كيان إمارته. كما رأت قبيلة شمّر الساكنة حول مركز هذه الإمارة أن تحزّب عنزة مع أهل القصيم تحدّ واضح لها. ومن هنا، تكاتفت كلها مع عبدالله بن رشيد، واجتمعت حاضرة الجبل مع باديته لصدّ ذلك الزحف[2] . وحين وصل أهل القصيم وحلفاؤهم إلى بقعاء أمر عبدالله بن رشيد أخاه عبيداً أن ينطلق مع مجموعة من الفرسان لمناوشة أتباع أهل القصيم من البادية الذين كانوا قد نزلوا ساعدة. وقد هاجم عبيد ومن معه هؤلاء البدو قبل طلوع الفجر. وكانت المناوشات بين الفريقين سجالا. وكان عبدالعزيز آل عليّان ويحيى بن سليم مع شوكة أهل القصيم يتوقعون الهجوم عليهم في بقعاء. وحين طلعت شمس ذلك اليوم والقتال ما زال دائرا بين أتباعهم من عنزة وبين عبيد بن رشيد ومن معه هبّ يحيى بن سليم مع خفيف الرجال مشاة لنجدة أتباعهم في

---

(١) بقعاء قرية تقع شرق حائل وتبعد عنها بحوالى خمسة وتسعين كيلومترا. وبعض التفاصيل عنها موجودة في **المعجم الجغرافي** لحمد الجاسر :١/٢٢٠—٢٢١.

(٢) فهد المارك، **من شيم العرب**: ٤/١٣٠—١٣٢.

ساعدة. ولما وصلوا إلى مكان المعركة وجدوا أن عبدالله بن رشيد قد وصل إليه مع باقي جنوده، فانهزمت بادية القصيم. وما أن رأى أمير بريدة انهزام هذه البادية حتى فقد الأمل وهرب مع بعض أتباعه على إبلهم وإبل يحيى بن سليم ومن معه، واتّجهوا نحو القصيم. وهكذا بقي يحيى ورجاله في الميدان دون ركائب. ولم يبق أمامهم إلا محاولة الصمود . لكن قلّتهم بالنسبة لخصومهم، إضافة إلى الظمأ الذي حدث لهم حين ارتفعت الشمس، أوقعتهم فريسة في أيدي أولئك الخصوم حتى أبيد أكثرهم. ويذكر ابن بشر أنه قد قتل من أهل بريدة أكثر من سبعين رجلا، بينهم ابن للأمير عبد العزيز وأنه قد قتل من أهل عنيزة نحو ثمانين رجلا، وأن الذي قتل من أهل القصيم عموما قريب من ثلاثمائة رجل(١) . وكان من بين الذين فقدوا حياتهم بسبب هذه المعركة أمير عنيزة، يحيى بن سليم(٢) .

وهكذا انتصر زعيم جبل شمّر وأتباعه على خصومهم من أهل القصيم وحلفائهم انتصارا عظيما. وذلك في جمادى الثانية سنة ١٢٥٧ هـ. وقد صوّر عبيد بن رشيد أحداث المعركة في قصيدة مشهورة مطلعها:

يا من لقلب فيه خمسه وعشرين
هجس وهاجوس وعدل ومايل(٣)

---

(١) **عنوان** :١١٧/٢ــ١١٨. وانظر، أيضا، **مقبل الذكير** : ٦٩.

(٢) **عنوان** :١١٧/٢ــ١١٨. ويقال إن أحد رجال شمّر عرض على يحيى فرسه ليهرب عليها، لكنه فضّل الذهاب إلى عبدالله بن رشيد. وكان أن بادره هذا الأخير بلطف. لكن مفاجأة حدثت فقلبت الوضع رأسا على عقب. ذلك أنه دخل على عبدالله أحد أبنائه وقال له : إن عمي قتل. فظن عبدالله أن المقتول أخوه وساعده الأيمن عبيد، في حين كان ذلك المقتول أخاً له من أمّه. ونتيجة لغضبه أمر بقتل يحيى فقتل صبرا. انظر المصدر السابق : ١١٨/٢ **ومقبل الذكير** :٦٩.

(٣) **نبذة** : ٧٩. بينما في **الأزهار** : ٧٣/٣ «فيه تسعة وتسعين» بدلا من خمسة وعشرين. وسواء كانت صحة البيت هذا أو ذاك فإن العدد ليس مقصودا بحد ذاته، وإنما قصد الشاعر أن يعبّر عن كثرة الأفكار والأحاسيس التي تتناوبه.

وعبّر عما أراده الخصوم بقوله:

جونا يبون ديارنا والبساتين
يبغون منزلهم قفار وحايل

كما عبّر عن موقفه وموقف أتباعه من هذه الإرادة بقوله:

واليـوم يبغونـا وحنّـا معييّـــن
نسند بحد السيف من جاه عايل (١)
يا دارنا من جاك جيناه عجلين
بالليل نسري والصُّفَر والقوايل (٢)
حضر الجبل والبدو ناتي صليبين
يَتْلِنّنا جملات سود الجدايـل

ثم وصف ما جرى في تلك المعركة بقوله:

جينا صباح وهم لنا مستكنّين
وثار الدَخنْ من حرّ صلو الفتايل(٣)
وحصل لنا عقب المواكل وفا الدين
وراعي السلف ردّت عليه الجمايل
ومن فضل العرش عدل الموازين
صارت على القصمال واولاد وايل(٤)

---

(١) نسند : نبعد : عايل : معتد.

(٢) الصفر : جمع صفرة، وهي الوقت الذي بين طلوع الفجر وشروق الشمس. القوايل : جمع قائلة، وهي الظهيرة. وقد خصّ الشاعر بالذكر هذه الأوقات الثلاثة التى ينام الناس عادة فيها ليعبّر عن مدى استعداد قومه في الذود عن بلادهم والسهر على حماهم في كل وقت.

(٣) الفتايل : جمع فتيل، وهي نوع من البنادق يثور بارودها بإشعال خرقة (فتيلة) تصل إليه.

(٤) القصمان : أهل القصيم. أولاد وايل : المنتمون الى قبيلة عنزة.

ربعي مروّية السيوف المسانين
خلّوا صفا بقعا من الدم سايل[١]

وقد أشار إلى دوره الشخصي في هذه المعركة بقوله:

اللّي ذبحت بشذرة السيف تسعين
منهم ولاني عن طَرَدْهم بسايل[٢]

وشجاعة عبيد بن رشيد مشهورة عند جميع سكان المنطقة حتى كان «بطلا أسطوريا في نجد» على حد تعبير الليدي بلنت[٣]. لكن الرحّالة دوتي يعلّل كثرة قتلاه في هذه المعركة بأنه فتك بخصومه بعد حلول الهزيمة بهم[٤].

ولا شك أن المعركة السابقة رفعت سمعة أمير الجبل ورسخت مكانته لدى قومه أكثر من ذي قبل، كما أنها أوضحت لخصومه أنه كان قويا بدرجة كبيرة. لكن أمير بريدة، عبد العزيز آل عليّان،الذي فقد ابنه في هذه المعركة، قد رأى فيها هزيمة شخصية له إضافة إلى كونها هزيمة لمنطقته وحلفائه. ذلك أن خلافه الشخصي مع أمير الجبل، عبدالله بن رشيد، كان من أهم دوافع قيامه بتلك الغزوة. واجتمع هذا العامل الشخصي، مرة أخرى، مع الشعور بأن الموقف يقتضي أن تظهر منطقة القصيم للآخرين أنها ما زالت قوية رغم الخسارة الفادحة التي منيت بها في بقعاء. وعلى هذا الأساس فإنه ما أن عاد إلى بريدة حتى بدأ اتصالاته بزعماء القصيم لتجهيز

---

(١) ربعي : قومي. خلوا : تركوا.
(٢) انظر القصيدة كاملة في **نبذة** : ٧٩ــ٨٥ وفي الأزهار: ٣/٣ــ٧٦.
(٣) **بلنت** : ١/ ٢٦٣.
(٤) **دوتي** : ٢/١ــ٤٢.
وهناك رواية تقول بأن كثيرا من أهل القصيم كانوا مختبئين، بعد هزيمتهم، ببعض الأشجار فناداهم عبيد بالأمان. وحين ظهروا إليه من مكان اختبائهم خانهم وقتلهم. انظر.

Socin, A., Diwan aus Centralarabien (H: Stume, ed.), Leipzig, 1900-01:49-51.

غزو لمنطقة جبل شمّر. ولم يكن مستغربا أن تجد اتصالاته آذاناً صاغية لدى أولئك الزعماء، خاصة أمير عنيزة الجديد، عبدالله بن سليم، الذي قُتِل أخوه يحيى صبرا إثر المعركة السابقة. وهكذا بعد فترة وجيزة سار من القصيم إلى جبل شمّر حوالى أربعة آلاف رجل، ومضوا في مسيرتهم حتى وصلوا إلى الكهفة(١) ، لكنهم «لم يحصلوا على طائل ورجعوا إلى بلدهم» على حد تعبير ابن بشر(٢) .

ومن الواضح أن أكثرية أهل القصيم ــ وقد مرّوا بالتجربة القاسية ــ أدركوا أنه من الأفضل لهم أن يقفوا في تحركهم عند هذا الحد الذي وصلوا إليه ويكتفوا بذلك القدر من إظهار القوة للخصوم، ولا يعرضوا أنفسهم لمغامرة جديدة قد تكون أنكى من سابقتها. لكنه من الواضح، أيضا، أنه قد وجد بين زعماء القصيم من لم يكن راضيا تمام الرضا عن قرار عودة هذه الغزوة بعد وصولها إلى الحد الذي وصلت إليه. وعلى أية حال، فإن مظهر الوحدة بين زعماء المنطقة ما لبث أن زال بعد فترة وجيزة. ففي سنة ١٢٥٩ هـ تحرك الإمام فيصل بن تركي من حائل، مدعوما بقوة الأمير عبدالله بن رشيد، حتى وصل إلى الكهفة. وهنا اختلف موقفا أميري المدينتين الكبيرتين في القصيم بريدة وعنيزة. فبينما رمى أمير بريدة بثقله مع ابن ثنيان ــ كرها فيما يبدو لعبدالله بن رشيد الذي كان عماد قوة فيصل ــ استقر رأي أمير عنيزة وزعمائها على أن ينضموا إلى فيصل، واستدعوه إلى بلدتهم. ثم سار مع ذلك الإمام أمير هذه المدينة وبعض مقاتليها إلى الوشم في مسيرته نحو الرياض(٣).

---

(١) تقع الكهفة إلى الجنوب الشرقي من حائل، وتبعد عنها حوالى ١٧٥ كيلومترا. انظر **المعجم الجغرافي** : ٣/١١٥٢ ــ ١١٥٣.

(٢) **عنوان** : ٢/١١٨ ــ ١١٩

(٣) المصدر السابق :٢/ ١٣٠ ــ ١٣٢. وقد ذكر مقبل الذكير : (٧٢) أنه قد سار مع أمير عنيزة من أهل هذه البلدة حوالى مائتين.

وبالرغم من أن بلدة عنيزة قد انضمت إلى الإمام فيصل، وأن منطقة القصيم كلها دخلت تحت حكمه في نهاية الأمر فإن المشاكل بينها وبين إمارة جبل شمّر، التابعة رسميا لهذا الإمام، لم تتوقف. لكنه من الملاحظ أن أكثر هذه المشاكل يكاد يكون محصورا بين إمارة الجبل وإمارة عنيزة. وكانت نهايتها هزيمة لأهل عنيزة في رمضان سنة ١٢٦١ هـ. ويختلف ابن بشر عن ضاري الرشيد، نوعا ما، في حديثهما عن الظروف التي أدت إلى تلك الهزيمة وإن كانا يتفقان على جوهر نهايتها. فالأول يقول بصورة مختصرة: إن أمير عنيزة، عبدالله بن سليمان (سليم)، أخذ إبلا لابن رشيد، فطلب منه أن يعيدها إليه، لكنه أبى. فأرسل إليه أخاه عبيدا مع خمسين ومائتي مطيّة وخمسين من الخيل فأغار على غنم أهل عنيزة، وخفّ إليه أهلها فحصل بين الفريقين قتال. وعند ذلك خرج على أهل عنيزة كمين ابن رشيد فانهزموا، وقتل منهم رجال. وقد عرف عُبَيْد أمير البلدة وإخوانه وبني عمّه فقتلهم صبراً. وبعث منهم رجالا إلى أخيه عبدالله في الجبل. فركب إلى هناك عبدالعزيز بن الشيخ عبدالله أبابطين، وأطلق عبدالله أولئك الرجال وكساهم بسببه[١].

أما ضاري الرشيد فيقول: إن أهل القصيم[٢] خافوا من أن زواج عبدالله ابن فيصل من نورة ابنة عبدالله بن رشيد سوف يجعل الإمام يأخذ جانب أمير الجبل في أي خلاف قد ينشأ بينهم وبينه. ولذا رصدوا لعبدالله وهو في

(١) **عنوان:** ١٤٦/٢.

(٢) على أن ما ذكره ضاري من حوادث كان بين إمارة الجبل وأهل عنيزة فقط.

طريقه من الرياض إلى بلده ليقضوا عليه[1] . لكنهم لم يدركوه. فلما فشلوا في خطتهم بعث أمير عنيزة رجالاً نحو الجبل فأغاروا على أطرافه، وأخذوا بعض الإبل والبقر[2] . واستمر الخلاف بين الطرفين حتى أخذ أهل القصيم

---

(١) أمّا أن أهل القصيم حاولوا اغتيال عبدالله بن رشيد فهو ما ذكره عبدالله نفسه حين قال:

يوم انهم عجزوا عَني بالغياله   شبّوا لنار الحرب بالقيظ صوّال

انظر **نبذة** : ٩٨. وقد ذكر فهد المارك (**من شيم العرب**: ١٧٤/١) أن أهل القصيم دبّروا مؤامرة لقتل عبدالله بواسطة رجل يقال له أبو هادي كان يقوم برقصات استعراضية، لكن عبدالله اكتشفها. وإلى ذلك يشير عبدالله في إحدى قصائده بقوله:

القلب مصموع وبالكف قاطوع   ما هي حكايا رقصتك يابو هادي

وذلك لا يتعارض مع ما ذكره ضاري. فمن المحتمل أن أهل القصيم قد حاولوا الأمرين للقضاء على عبدالله بن رشيد.

(٢) ومما يؤيد هذه الرواية قول عبيد بن رشيد في إحدى قصائده :

يا ابن سليم ان كان غرتوا بالاطراف   ما تنتفع بالطهبله والتداهير

لو تذبحون من البقر تسعة آلاف   ما هن لموتاكم بيدٌ حواوير

انظر **الأزهار** :٦١/٣. وقوله في قصيدة ثانية:

يا ابن سليم ان كان اخذتوا لنا ثور   وحطيت لك ناس يدورون الاطماع

ياما نصحتك مير ما تقبل الشور   تمشي لنا شبر ونمشي لكم باع

المصدر السابق: ٦٨/٣

ويبدو أن أمير بريدة، عبدالعزيز آل علّيان، كان مؤيداً لما قام به أمير عنيزة من أعمال ضد الجبل. وذلك ما يشير إليه عبيد بن رشيد:

أعمى بريدة لا يدزّك بميهاف   تتبع ذلولك في عمى سالف البير

مولّم شقراه وان شاف ما عاف   مع الغتارهْ عابي للمصادير

المصدر السابق : ٦٢/٣. وفي البيت الأخير إشارة إلى هروب عبدالعزيز آل علّيان من أرض المعركة في بقعاء.

قافلة لشمّر. فشكا عبدالله بن رشيد الأمر إلى الإمام فيصل. فأرسل إليهم رجلين من خاصة رجاله هما فرحان وابن سبيت. لكنهم أخذوا يماطلونهما. وهنا قرر عبدالله أن يتصرّف بنفسه لحلّ الموضوع والانتقام منهم. وكان أن بعث جيشا بقيادة أخيه عبيد، ورسم له خطة الهجوم على عنيزة. وكانت الخطة أن يبعثوا أهل ركاب يأخذون غنم أهل تلك البلدة بينما يكمن الجيش الرئيسي ليفاجيء من سيظهر من أهلها لاستعادة الغنم. وحين نفذت هذه الخطة هزم أهل عنيزة هزيمة منكرة وقتل منهم — فيما يزعمون — خمسون وأربعمائة رجل، منهم أمير البلدة عبدالله بن سليم(١).

ومن الواضح أن هناك مبالغة كبيرة بالنسبة لعدد القتلى الذي زُعِم في الرواية السابقة. وكثيرا ما بولغ في أعداد المقتولين بقصد مدح المنتصر وتعظيم انتصاره. ولعل مما يبين هذه المبالغة أن ضاري الرشيد نفسه سبق ذكر العدد بقوله «فيما يزعمون»، مما يوحي بأنه غير مطمئن إلى صدقه. لكن أوضح من ذلك تعبير ابن بشر عن هذا الموضوع بقوله: «فقتلوا في المعركة منهم رجالا (٢) » وهذا يدل على أن القتلى لم يكونوا كثيرين. وتتفق مع رواية ابن بشر روايات ابن عيسى والبسام والذكير في تعبيرها عن عدد القتلى بصورة لا توحي بكثرتهم(٣) . أما الفاخري، المعاصر لتلك الحادثة، فقد نص على أن القتلى كانوا حوالى ثلاثين رجلا(٤) .

وقد سجل عبيد بن رشيد هذه الحادثة بتفاصيلها في قصيدة مطلعها:

طلبتْ من يعطي العطايا إلى سيل
اللّي عن الطلّاب ما صك بابه(٥)

---

(١) نبذة : ٨٩—٩٣. وقد اعتمد وايندر (١٥٤) على هذه الرواية دون مناقشة.

(٢) عنوان : ١٤٦/٢.

(٣) انظر ابن عيسى تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد..، دار اليمامة، ١٣٨٦ هـ: ١٦٨. عبدالله البسام، تحفة المشتاق.. ورقة ١٣٩، مقبل الذكير:٧٣.

(٤) انظر الفاخري :١٣٤.

(٥) توجد هذه القصيدة في الأزهار:٦٣/٣—٦٤ بكاملها.

ويبدو أن عبدالله بن رشيد قد أدرك أن تصرفه وعمل أخيه عبيد سيثيزان غضب الإمام فيصل بن تركي. ذلك أن هذا الإمام كان يأمل أن يحلّ موضوع إبل أمير جبل شمّر، التي أخذها أمير عنيزة، بالطرق السلمية. وكان مندوباه، فرحان وابن سبيت، لا يزالان في منطقة القصيم. ومن هنا، فإن عبدالله حاول أن يتدارك الأمر، فأرسل وفداً إلى الرياض ليشرح الموقف للإمام فيصل ويدافع عن نفسه. وقد بعث مع ذلك الوفد قصيدة موجهة إلى ذلك الإمام أنحى فيها باللائمة على خصومه، وأشار فيها إلى أنهم هم المعتدون أولًا، كما برّر عمله فيهم، خاصة أنهم لم يستجيبوا لنداء الإمام لحل تلك المشكلة.

هذاك حق اللّي خطوطك عصى لَهْ
فرحان وابن سبيت ما القى لهم بال

يوم الخطوط اقفت وجت ما قرا له
جاه المقــتري والْحَقْ الاول التال

ولا طاع يودي ركبنا مع جماله
من عقب ما كزّيت لْهم كل مرسال[1]

وعيّى يطيع اللّي بنصح حكى له
وازريت من كثر الشكاوي والارسال[2]

والسيف للتايه ستاده حنا له
وندّل به من هو عن الجاده مال[3].

---

(١) يودي: يعيد ما أخذ أو يدفع ثمنه. كزّيت : بعثت.

(٢) ازريت : تعبت ومللت.

(٣) التايه: المغرور المنحرف عن جادة الصواب.

ولم يغب عنه في هذه المناسبة أن يُذَكِّر الإمام فيصلا بسابق تفانيه من أجله حين قال:

يمناي ما ترضى زوايد شماله
واعطى الحقوق أهل المعالي والارذال

شهودي بجلدي والعدو به مثاله
والناس تدري بالجدايد والاسمال(١)

ويشير ضاري الرشيد إلى أن هذه القصيدة قد لعبت دورا كبيرا في تهدئة الإمام فيصل لدرجة أنه قال:«إن أهل القصيم لم يزالوا أهل بغي وطغيان»(٢). ومن المحتمل أن ما ذكره ضاري كان صحيحاً، وأن الإمام قد اقتنع بما ذكره عبدالله بن رشيد في قصيدته. ومن المرجّح أن ثقة ذلك الإمام بأمير الجبل وصداقته له، إضافة إلى قوة الأمير عبدالله، كانت من الأمور التي ساعدت في جعل الإمام فيصل بن تركي يقبل بالأمر الواقع، وأن تقف تلك المشكلة عند ذلك الحد. وفي الواقع أن انتهاء المشكلة السابقة كان توقفاً لجميع المشاكل بين منطقتي جبل شمّر والقصيم لفترة طويلة.

ومن المرجّح أن منطقة الكهفة كانت الحدّ الفاصل بين نفوذ الأمير عبدالله ابن رشيد وبين نفوذ زعماء القصيم.

علاقته بالمناطق الشمالية

اختلفت نتائج علاقة الأمير عبدالله بن رشيد بالجهات الواقعة جنوب منطقة جبل شمّر، وفي مقدمتها القصيم، عن نتائج علاقته بالجهات الواقعة شمال تلك المنطقة كالجوف وما حولها من قبائل. فرغم انتصارات عبدالله على أهل منطقة القصيم فإنه لم يكن من السهل عليه مدّ نفوذه في اتجاه الجنوب. ولعل ذلك عائد إلى سببين مهمّين:

---

(١) نبذة: ٩٤ــ١٠١. وفي البيت الأخير إشارة إلى الآثار التي في يدي عبدالله نتيجة لاشتباكه مع عبد مشاري بن عبدالرحمن إثر اغتيال الإمام تركي.

(٢) المصدر السابق : ١٠٢.

أحدهما القوة النسبية لمنطقة القصيم، والثاني وجود القوات المصرية فيها شطرا من زمن إمارة عبدالله وتبعيتها للإمام فيصل بن تركي، الذي كان عبدالله تابعا له من الناحية الرسمية، في السنوات الأربع الباقية من زمن إمارته. أما الجهات الشمالية من جزيرة العرب فقد كانت ميدانا مفتوحا، أمام عبدالله بن رشيد لتوسيع نفوذه.

ومن الملاحظ أن هناك نوعا من الغموض في المصادر المحلّية فيما يتعلق بالنشاط العسكري لعبدالله بن رشيد، وما حقّقه من نجاح في الجهات الشمالية المشار إليها سابقا. فابن بشر حينما يتحدّث عن ذلك الأمير يصفه دائما بأنه أمير جبل شمّر أو أمير الجبل فقط. ووصفه بذلك لا يعني أن نفوذه لم يمتد إلى خارج تلك المنطقة، وإنما خصها بالذكر لأنها القاعدة أو الركيزة لحكمه. وابن بشر، أيضا، يذكر أنه كان بين عبدالله بن رشيد وبين قبيلة عنزة محاربات، وأنه أوقع بها عدة وقائع (١). لكنه لم يعط أية تفصيلات عن تلك المحاربات والوقائع. والمفهوم من تعبيره المجمل هذا أن عبدالله قد انتصر على تلك القبيلة. والمتأمل يدرك أن الحروب التي دارت بين أمير الجبل وبين قبيلة عنزة كانت، بدرجة كبيرة، جزءاً من الصراع الذي كان موجوداً بين هذه القبيلة وبين قبيلة شمّر التي ينتمي إليها، ويعتمد عليها اعتمادا كبيرا، ذلك الأمير. ومما ذكرته المصادر المحلّية في هذا الصدد أن هايس القعيط الشمري قتل عقاب بن سعدون العواجي العنزي المشهور في إحدى المعارك. ثم إن ابن عقاب قتل هايسا في معركة دارت بين الأخير وأتباعه من شمّر وبين غنيم الربضاء ومن معه من عنزة. وحين تولّى عبدالله بن رشيد إمارة منطقة الجبل وتوطّد نفوذه فيها وفد إليه زعماء من قبائل الجهات الشمالية للجزيرة. وكان من بين هؤلاء غنيم الربضاء، الذي قدّم ثلاثا من الخيل هدية إلى عبدالله. وقد حدث أن كان من بين الجالسين في مجلس

---

(١) عنوان: ١٤٩/٢.

الأمير شاعر شمّر ابن طوعان، الذي كان، آنذاك، كبير السن، كفيف البصر. فقال له ابن رشيد: هذا غنيم الربضاء يا ابن طوعان قم وسلّم عليه. فأجابه ابن طوعان على الفور بهذين البيتين :

يا غنيم عندك هايس نطلبك دين
خيّال تالي شمّر بالسنود

ان كان ما جازاك عنها صباحين
ما هو ولد علي عريب الجدود

فردّ عبدالله بن رشيد هدية غنيم إليه وأمره أن يعود إلى قومه قائلا له: لا بد أن نثأر منك لأنك زعيم المعركة التي قتل فيها هايس القعيط. ويقال إن عبدالله غزا غنيماً فيما بعد وتمكّن من قتله[1] .

ومن المرجّح أن قسماً من قبيلة عنزة كان يدفع الزكاة إلى أمير جبل شمّر. ذلك أن مما يتناقله الرواة المحليون أن عبدالله بن رشيد كان قد بعث أحد رجاله لجمع الزكاة من فريق من قبيلة عنزة برئاسة ثلّاب بن مجلاد. وبعد أن بدأ بجمعها وصل إليهم خبر وفاة عبدالله وتولّي ابنه طلال الإمارة بعده. فرفض ثلّاب دفع ما لم يجمع من الزكاة قبل ورود الخبر، معلّلا ذلك بأن الاتفاق على دفعها لأمير الجبل كان بينه وبين عبدالله. وبوفاته انتهى مفعول ذلك الاتفاق[2] .

وموقف الفاخري، المؤرخ النجدي المعاصر لأحداث تلك الفترة، مشابه لموقف زميله ابن بشر من حيث الغموض فيما يتصل بالنشاط العسكري لعبدالله بن رشيد وتوسع نفوذه. فهو حين تكلم عن وفاته سنة ١٢٦٣ هـ قال:

«توفي عبدالله بن علي بن رشيد رئيس بادية شمّر وقرى جبل شمّر. وكان

(١) السديري، **أبطال من الصحراء**، بيروت، ١٣٨٨ هـ: ١/١٠٤ــ١٠٦.
(٢) رواية محمد العلي العبيّد.

صارما مهيبا. أرجف الأعراب بالغارات حتى خافه قريبهم وبعيدهم[١]». لكنه لم يذكر معلومات واضحة عن تلك الغارات التي أشار إليها هنا إشارة مجملة غامضة، ولم يذكر أسماء القبائل التي ينتمي إليها أولئك الأعراب. على أن عبارة «حتى خافه قريبهم وبعيدهم» توحي بتأكيد هذا المؤلف لقوة عبدالله بن رشيد. وذلك أمر يتلاءم مع ترجيح توسع نفوذه. لكن العبارة نفسها، على أية حال، لا تحدّد مدى ذلك النفوذ.

أما تقارير الرحّالين الأجانب فإنها غير متّفقة حول الأمير عبدالله بن رشيد واتساع نفوذه. فبلجريف يذكر أن سلطته لم تتجاوز جبلي أجأ وسلمى[٢]. وموقف هذا الرحّالة من عبدالله، بصفة عامة، غير ودّي. ولعل فيما ذكره، هنا، عن سلطته محاولة للتقليل من شأنه. وتقريره هذا على طرف نقيض مع تقرير والين، الذي زار المنطقة زمن الأمير المذكور. ذلك أن والين يذكر أن نفوذ أمير جبل شمّر امتد كثيرا حتى شمل الجوف وتيماء. ويورد القصة التي دخلت بها الجوف تحت نفوذ الأمير عبدالله بن رشيد فيقول : إنه كان هناك صراع بين حَيّي الدلهمية والسرّاح من جهة وخذما والقرعاوي من جهة أخرى. وقد خرّب في ذلك الصراع حيّ القرعاوي الذي كان سكانه ينتمون إلى الرمال من قبيلة شمّر. وكان هؤلاء قد هاجروا من جبّة إلى الجوف. وفي عام ١٢٥٤ هـ تقريبا بعث أمير الجبل أخاه عبيدا ليضع حدا للصراع المشار إليه. وكانت نتيجة ذلك أن دخلت الجوف تحت نفوذ عبدالله، وأصبحت

---

(١) **الفاخري**: ١٣٥ . ومن الواضح أن قول الفاخري عن عبدالله بأنه «رئيس بادية شمّر» تعبير غير دقيق. ذلك أنه إن فسّر بمعنى امتداد نفوذه على هذه القبيلة فمن المعلوم أن كثيرا من فروعها لم يصل إليها ذلك النفوذ. وإن فسر على أنه بادية جبل شمّر فقط فمن المرجح أن تبعية بادية تلك المنطقة لعبدالله لم تجعله رئيسا لها بالمعنى القبلي المفهوم لهذه الكلمة، وإنما ظلت رئاسة البادية هناك لزعمائها التقليديين رغم تبعيتها لأمير الجبل.

(٢) **بلجريف** : ١٢٦/١ .

تدفع إليه الزكاة، دون أن يكون له ممثل مقيم فيها[١].

ويتفق تقرير موزل مع تقرير والين فيما يتعلّق بامتداد نفوذ الأمير عبدالله بن رشيد إلى منطقة الجوف، والطريقة التي نتج عنها ذلك الامتداد. ويذكر موزل، أيضا، أنه كان مع عبيد بن رشيد حوالى ثلاثة آلاف رجل حين ذهب إلى تلك المنطقة سنة ١٢٥٤ هـ[٢].

ولم يكن غريبا أو غير متوقع أن يمتد نظر الأمير عبدالله بن رشيد إلى منطقة الجوف بعد أن استتبت له الأمور في جبل شمّر. ولعلّ مما شجعه على غزوها عدة أمور، منها أن تلك المنطقة كانت مربوطة بإمارة حائل من الناحية الإدارية في فترة غير بعيدة من زمن إمارته[٣]. ومنها أنه كانت توجد فيها خلافات بين أحيائها المختلفة. ومن المعروف ما للخلافات الداخلية، عادة، من آثار سلبية على قوة من حلّت بهم، وفي ذلك ما فيه من إغراء لغزوهم. ومما لا شك فيه أنه كان من دواعي تحمّس عبدالله بن رشيد على غزو المنطقة المذكورة تضرر سكان حيّ القرعاوي، الذين كانوا ــ أصلا ــ من أهل جبّة، نتيجة تلك الخلافات الداخلية. ذلك أنه كانت لسكان هذه البلدة ومن يمتّون إليهم بصلة منزلة خاصة لدى عبدالله بن رشيد، لأن جبّة كانت البلدة التي رحّبت به وأكرمته حين اضطر إلى مغادرة حائل أثناء صراعه مع آل علي.

وسواء كان التاريخ الذي أعطاه كل من والين وموزل لوصول نفوذ الأمير عبدالله بن رشيد إلى الجوف دقيقا أم لا فإنه من المرجّح أن نفوذه قد وصل إلى تلك المنطقة على أية حال. لكن ما ذكره الأول من هذين المؤلفين من كون تبعيتها لأمير الجبل لم يمنع عنها هجمات القبائل المجاورة، وما ذكره

(١) والين، **قصة** : ١٤٤ و١٤٦.

(٢) موزل ، **شمال نجد**: ٢٣٨ــ٢٣٩. وقارن ذلك بكل من فؤاد حمزة، **قلب جزيرة العرب**: ٣٤٢ والزركلي، **شبه الجزيرة**..: ١/١١٥.

(٣) انظر صفحة ١١ من هذه الدراسة.

كلاهما من عدم وجود ممثل لذلك الأمير فيها (١) يرجّحان أن نفوذه في تلك المنطقة لم يكن قويا. ذلك أنه لو كان قويا لكان من المرجّح أن يوجد له فيها أمير، وأن يدفع عنها هجمات تلك القبائل(٢).

وما ذكره والين عن نفوذ الأمير عبدالله بن رشيد في تيماء يبدو مشابها في بعض جوانبه لما ذكره عن نفوذ ذلك الأمير في الجوف. فقد أشار إلى أن سكان تيماء كانوا يدفعون الزكاة إلى أمير جبل شمّر، وأنهم كانوا يذهبون إليه في حائل ليحكم بينهم في القضايا المهمّة. لكنه ذكر، أيضا، أن ذلك الوضع لم يعفهم من دفع الإخاوة المعتادة إلى قبيلة بلي، التي كانت ــ بدورها ــ تدفع الزكاة إلى أمير الجبل(٣).

وهكذا يتّضح أن نفوذ الأمير عبدالله بن رشيد امتدّ إلى مساحة واسعة شمال جبل شمّر حتى شمل الجوف وتيماء وما حولهما، لكنه كان، على الأرجح، نفوذاً محدودا في مدى قوته، وكان من أبرز صفاته دفع سكان تلك المناطق الزكاة إلى إمارة جبل شمّر.

---

(١) والين، **قصة** : ١٤٦و١٤٩، موزل، **شمال نجد**: ١٣٨.

(٢) ولقد حدثت حروب بين الجوف وإمارة جبل شمّر زمن الأمير طلال بن عبدالله بن رشيد كان من بين دوافعها، فيما يبدو، محاولة سكان الجوف التخلص من أي نفوذ لإمارة الجبل عليهم وإصرار هذه الإمارة على إخضاع تلك المنطقة أكثر فأكثر لنفوذها. وكانت نتيجة تلك الحروب في صالح إمارة جبل شمّر.

(٣) والين، **ملاحظات** : ٣٢٤و٣٣١. وقد يبدو غريبا أن تدفع تيماء الإخاوة إلى قبيلة بلي رغم أن هذه القبيلة وتلك البلدة كانتا تدفعان الزكاة إلى الأمير عبدالله بن رشيد. لكن وضعا كهذا لم يكن فريدا من نوعه في تلك الفترة. فكثيرا ما لاحظ الدارس لتاريخ تلك الحقبة الزمنية قبائل تتصارع رغم تبعيتها لحاكم واحد من الناحية الرسمية ودفعها الزكاة إليه.

رموز بعض المصادر

الأزهار : **الأزهار النادية من أشعار البادية**، نشر محمد سعيد كمال.

بلجريف : Palgrave, **Narrative of a Year,s Journey through Central and Eastern Arabia (1862-63).**

بلنت : Blunt, **A Pligramage to Negd: the Cradle of the Arab Race.**

جوارماني : Guarmani, **Northern Nejd: A Journey from Jerusalem to Anaiza in Qasim.**

دوتي : Doughty, **Travels in Arabia Deseta.**

روضة : **روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام**، لحسين بن غنام.

عنوان : **عنوان المجد في تاريخ نجد**، لعثمان بن بشر.

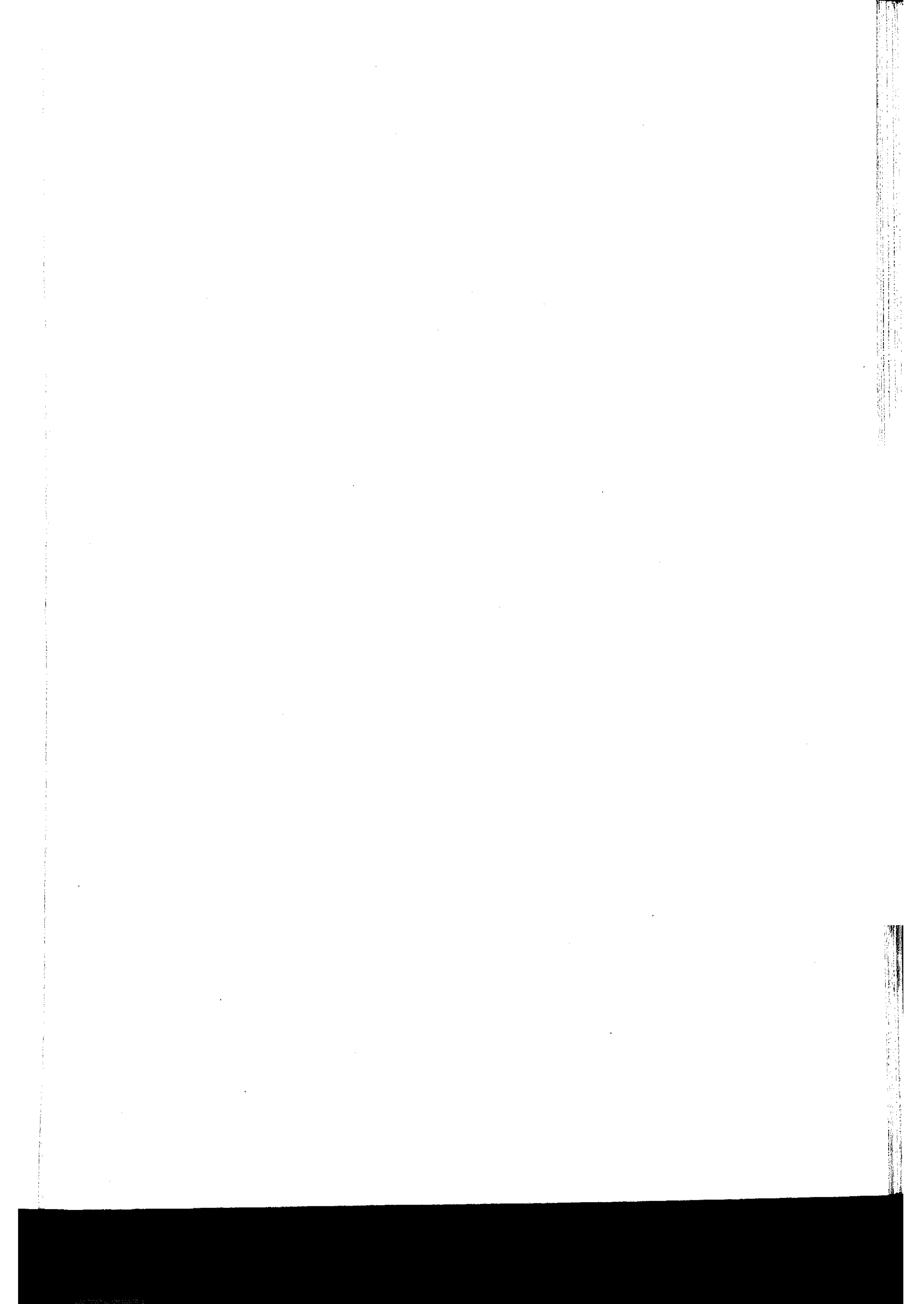
الفاخري : **تاريخ مختصر عن بعض الحوادث في نجد بدون عنوان**، لمحمد ابن عمر الفاخري.

مقبل الذكير :مسودة تاريخ لم يقرر مؤلفها له عنوانا، لمقبل الذكير.

نبذة : **نبذة تاريخية عن نجد**، أملاها ضاري بن فهيد الرشيد.

والين، **قصة** : Wallin, **Narrative of a Journey from Cairo to Medina and Mecca, by Suez, Araba, Tawila, al-jauf. Jubbe, Hail and Nejd in 1845.**

هوبير : Huber, **Journal d'un Voyage en Arabie (1833-1884)**



المصادر

أولا ــ مصادر باللغة العربية

أ ــ أعمال غير منشورة

البسام، عبد الله بن محمد،
تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، صورة لنسخة نقلها عن الأصل نور الدين شربية سنة ١٣٧٥ هـ.

الذكير، مقبل بن عبد العزيز،
مسودة تاريخ لم يقرر مؤلفه له عنوانا. وهي موجودة بخط المؤلف في كلية الآداب، جامعة بغداد، رقم ٥٦٩.

الفاخري، محمد بن عمر،
تاريخ مختصر عن بعض الحوادث في نجد بدون عنوان. يبتدىء من سنة ٨٥٠ هـ وينتهي بسنة ١٢٨٨ هـ، جمعه ونسخه عبدالرحمن ابن ناصر ، مكتبة جامعة الرياض، رقم ٤٨.

مؤلف مجهول،
كيف كان ظهور شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب، المكتبة الوطنية في باريس، رقم ٦٠٦١.
وثائق من دارة الملك عبد العزيز في الرياض.
وثائق من دار الوثائق المصرية بعابدين في القاهرة.

ب ــ أعمال منشورة

ابن بشر، عثمان بن عبدالله،

عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبدالرحمن آل الشيخ، الطبعة الثانية على نفقة وزارة المعارف السعودية، ١٣٩١ هـ.

الجاسر، حمد،

في شمال غرب الجزيرة ، دار اليمامة ، ١٣٩٠ هـ.

المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: شمال المملكة، دار اليمامة ، ١٣٩٧ هـ.

حمزة، فؤاد،

قلب جزيرة العرب ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ.

الدخيل ، سليمان،

القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد، طبع ملحقا لنبذة ضاري بن فهيد الرشيد ، دار اليمامة ، ١٣٨٦هـ: ١٣٣ ــ ١٧٣.

الرشيد ، ضاري بن فهيد،

نبذة تاريخية عن نجد ، أملاها الأمير ضاري بن فهيد الرشيد وكتبها الأستاذ وديع البستاني ، دار اليمامة ، ١٣٨٦ هـ.

الرشيدي، سعود بن سند،

التحفة الرشيدية في الأشعار النبطية، الكويت، دون ذكر لسنة الطباعة.

الريحاني ، أمين،

تاريخ نجد وملحقاته ، بيروت ، ١٩٧٣م.

الزركلي ، خير الدين،

شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ، بيروت ، ١٣٩٠ هـ.

زيدان ، محمد حسين،

«الوثائق تتكلم» ،**الدارة** ، ربيع الأول، ١٣٩٥ هـ.

السديري ، محمد بن أحمد،
أبطال من الصحراء، الجزء الأول، بيروت، ١٣٨٨ هـ.

العبودي ، محمد بن ناصر،
المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية : بلاد القصيم، داراليمامة، ١٣٩٩ هـ.

العزّاوي ، عباس،
عشائر العراق، بغداد، ١٣٦٥ هـ.

ابن عيسى، إبراهيم بن صالح،
تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وبناء بعض البلدان (من ٧٠٠ هـ إلى ١٣٤٠ هـ)، بإشراف حمد الجاسر، دار اليمامة ، ١٣٨٦ هـ.

ابن غنام ، حسين،
روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، القاهرة، ١٣٦٨ هـ.

الفهيد ، منديل بن محمد،
من آدابنا الشعبية في الجزيرة العربية، دار اليمامة، ١٣٩٨ هـ.

كمال ، محمد سعيد،
الأزهار النادية من أشعار البادية، نشر محمد سعيد كمال، القاهرة، دون ذكر لسنة الطباعة.

مؤلف مجهول،
لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تحقيق الدكتور أحمد مصطفى أبو حاكمة، بيروت، ١٩٦٧م.

المارك ، فهد،
«ملاحظات على كتاب موزل»، **العرب**، محرم وصفر، ١٣٩٦ هـ.
من شيم العرب، بيروت، ١٣٨٦ هـ.

من شيم الملك عبد العزيز، ؟ ، ١٣٩٨ هـ.
الهندي، علي بن محمد،
زهر الخمائل في تراجم علماء حائل، جدة، ١٣٨٠ هـ.

ثانيا ــ أعمال بلغات أجنبية

أ ــ أعمال غير منشورة

Baron, Michel
The Rashidi Amirate, Doctoral Dissertaion, University of Michigan, 1978-9.

Williamson, John
The Political History of the Shammar Jarba Tribe of al-Jazirah: 1800-1958, Doctoral Dissertation, Indiana University, 1975.

ب ــ أعمال منشورة

Blunt, Lady Anne
A Pilgramage to Nejd: the Cradle of the Arab Race,
London, 1968.

Doughty, Charles
Travels in Arabia Deserta, London, 1936.

Guarmani, Carlo
Northern Nejd: A Journey From Jerusalem to Anaiza in Qasim, translated from the Italian by Capel-Cure, London, 1938.

Hogarth, D. G.
The Penetration of Arabia, London, 1905.

Huber, Charles
Journal d'un voyage en Arabie (1883-1884), Paris, 1888.

Longrigg, S, H,
Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925.

Musil, A.

The Manners and Customs of the Bedouins, New York, 1928.

Northern Negd, New York, 1928.

Palgrave, W. G.

Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia (1862-63) London, 1865.

Rosenfeld, H.

«The Social Composition of the Military in the Process of State Formation in the Arabian Desert», **The Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland,** vol. **95,** part I, Jan. to June, 1965: 75-86 and 174-194.

Sadleir.

Diary of a Journery across Arabia (1819), New York, 1977.

Socin, A.

Diwan aus Centralarbien (H. Stumme, ed.) Leipzg. 1900-01.

Wallin, G. A.

(Narrative of a Journey from Cairo To Medina and Mecca, by Suez, Araba, Tawila, al-Jauf, Jubbe, Hail and Nejd, in 1845),**The Journal of the Royal Geographical Society,** XXIV, (1854): 115-207.

(Notes Taken during a Journey through Part of Northern Arabia, in 1848), **The Journal of the Royal Geographical Sociaty,** XX (1850): 293-339.

Winder, R. B.

Saudi Arabia in the Nineteenth Century, New York, 1965.

